

المقبر

تاريخ الحضارة

مملكة الافرنج

الممالك البربرية

تأسس الحكم الامبراطوري — لم يشأ ملوك البربر النازلين في الامبراطورية الرومانية ان يأتوا على المعاهد الامبراطورية فيبيدوها بل آثروا ان يخلفوا الامبراطرة ويستولوا الشرائع ويصدروا الاحكام ويحبوا الضرائب وعلى الجملة ان يحكموا كما حكم الامبراطور . هكذا كان شأن ملوك البورغوند والويزغوت والوندال في القرن الخامس ولكن ملك الاوستروغوت في ايطاليا تيودوريك قد بلغ في احتذاء ذلك المثال ارقى درجاته في القرن السادس فكان له في فارون قصر بني على مثال قصر الامبراطور مع وزيره وصاحب حاشيته ووكيل خزينته وامناه ماله وكان له ولاية ومحافظون يجبون الضرائب اما القوات فظلوا محاربين ومنهم بتألف الجيش تحت اوامر الدوقات والكونتية منهم . وفي ظل هذا الحكم كان الايطاليون يعيشون بسلام كما كانوا على عهد الامبراطورية فانشأوا يصلحون الحجاري والحمامات ودور التثيل بل وشادوا ايضا مصانع جيدة مثل قصر فارون ومسلة رافن وبدأ التثيل يعود الى ما كان عليه ونفتح مدارس البيات لقبول الطلاب وعلى اذاك العهد نبغ بويس آخر شعراء اللاتين القدماء (٤٧٠ — ٥٢٤) بيد ان القوات لم يخضعوا زمانا طويلا لهذا النظام فبعد موت تيودوريك كانت المملكة اما لازوت ثربي ابنها على يد اساتذة رومانيين فجاء رؤساء الجند يطلبون ان يربوا الطفل مع اترابه على الصيد وحمل السلاح على نحو ما تقتضي بذلك العادة البربرية . حكومة الميروفنجيين — كان ملوك الافرنج في غالبا اكثر توحشا من تيودوريك

وحاولوا مع ذلك ان يحكموا البلاد على الطريقة الرومانية فمنح امبراطور القسطنطينية كلوفيس لقب قنصل وبطريق فظهر في مدينة تور لابسا رداء من الأرجوان وعلى رأسه التاج واقتسم اخلافه المملكة بينهم كما يقسم الملك ولكن كان لكل منهم قصره في البقعة التي كان يحكم فيها كلوفيس فيجلس على عرش من ذهب يحف به رجال الدولة بالقابهم الرومانية من قومس (كونت) الى صاحب الخاتم الى الحاجب وكان لهم شعراء في قصورهم مثل الشاعر فناتيوس فورتوناتوس الذي جاء من ايطاليا ونظم اكراما لزوجات برونهوت ايانا مخللة مصنعة اظهر فيها كوبيدون (اله الحب) فرحا بالزواج والزهرة (اله الجمال) لتذكر ان برونهوت جميل مثلها وكان الملك شيلبريك نفسه ينظم ايانا باللاتينية غاية في السقم والركاكة واخترع حروفا جديدة مثل *Qvith, oae* وكان يأمر الكونتية ان يمحو بالتشاف (الحفان) رقوق كتب التعليم في المدارس العامة ليعيدوا كتابتها بحروفه الجديدة وبعنى بعلوم الدين ايضا ويدعي ان العزة الالهية يجب ان يطلق عليها اسم واحد وقد قال لاحد الاساقفة هكذا ار يدك ان انتقد انت واخوانك من علماء الكنيسة . ولما اتاه من ارسلهم الى القسطنطينية بالافتشة والزين وأيقونات الذهب عرض مالتوه به في قصره وعرض في الوقت نفسه حوضا عميقا من الذهب الذي كان امر بصنعه فكان يربه للناظرين باعجاب قائلا انا الذي استصنعت له لآلئة ولارفع من قدر أمة الافرنج ولعمري كم استصنع اذا عشت من الاعلاق والتحف

تخاذل المير وفنجين — لم يستطع هؤلاء المقلدون في المدينة الحديثة ان يطول عهدهم فان الافرنج كالغوت بلغوا من التوحش مبلغا لم يقبلوا معه على النظام الملكي فكان الحاربون يحترمون ملوكهم لانهم كانوا من العنصر المير وفنجي ولكن خضوع موقت وكان المقاتلة اكثرهم عرامة يعيشون بالقرب من الملك وفي موكبه ويسميه الملك رجاله وكثيرا ما يكون هؤلاء اكثر سلطة من الملك . وفي سنة ٥٣٤ بينا كان الملكان شيلبر وكونتير ذاهبين لتغريب بلاد البورغوند واراد تيري ان يبق في مملكته جاء رجاله يقولون له اذا لم تذهب الى بورغونديا مع اخوانك ننزل عنك ونلحق بهم . يريدون تيري ان يقودهم لتغريب اوفرنيا . وبعد حين قال احد المقاتلين للملك كونتران : نحن نعلم اين خبئت تلك الفأس الندية بدم اخوانك فانا نستطيع بها ان نقطع رأسك . وقد اخذ كونتران الفرع فقال ذات يوم في الكنيسة امام جمهور المؤمنين : انقسم عليكم

ايها الرجال والنساء الحاضرون هنا ان لا تقتلوا في كذا قتلتم اخواني من قبل . وكان هؤلاء
المقاتلة الذين لا تدرب لم يرضون بان يلحقوا بملوكهم سيف الحروب . لانهم كانوا
يرجون في الحروب ان يمودوا وايديهم ملاءى بالامرى والغنائم على انهم كانوا لا يودون
اداء الضرائب وحاول بعض الملوك ان ينفذوا القانون الروماني الذي كانوا يرونه
نافعا في جباية المال وقد عهد تيودير ملك الافرنج في اوسترازايا الى وزيره بارتنيوس
ان ينظم امور الجباية فلما قضي نفعه انتقض الافرنج وذبحوا بارتنيوس سيفه كقبسة
تريف (٥٤٧) وبعد ثلاثين سنة امر شيلبريك بتنظيم قوائم بالاملاك وان تقسرب
ضريبة على الاراضي والعبيد وخربت مملكة شيلبريك في العشرين التالية بما اصابها
من الطوفان والحريق والابوثة واوشك الملك ان يهلك بعد ان فقد ابنه وكان القوم
بندهبون الى ان الله عاقب شيلبريك على الجناية التي ارتكبها بوضع الضرائب على
الناس . ولما رأت الملكة فريدغوندا اولادها قدموا الى النار سجلات غرائب
المدن التي كانت خاصة بها واذا تردد زوجها ان يلقي سجلاته قالت له : وماذا ينمك ان
تخذ وحذوي فاعمل عملي حتى اذا فقدنا اولادنا الاعزة نخلص على الاقل من العقوبات الابدية
(٥٨٠) . وفي سنة ٦١٤ اجتمع الاساقفة ورجال الملك واكرهوا الملك كولثير ان ينشر
امرا بالغاء جميع الضرائب .

الحقوق الرومانية وملوك البربر — كان ملك الافرنج في القرن السابع ملكا على
جميع جرمانيا ولم يكن سكان هذه المملكة الواسعة أمة واحدة متحدة اجزاؤها بل كان لكل
شعب لغته وعادته ولم يكن في البلاد قانون واحد يخضع له الجميع على السواء وكان
لكل انسان قانونه الشخصي خلال زهاء ثلاثة قرون (من القرن السادس الى التاسع)
وقد احتفظ قدماء سكان الامبراطورية بالقانون الروماني اما البربر فكان كل واحد
منهم يتبع عادة شعبه القديمة . وقد كتبت هذه العادات باللغة اللاتينية في عصور
مختلفة فسميت قوانين البربر فقام بذلك قانون الافرنج (وهو يجمع النساء واولادهن من كرمي
الملك) وقانون ريبور وقانون الامان وقانون الفريزون وقانون البافاريين وبالجملة
كانت القوانين بقدر عدد الشعوب . وهذه العادات التي جعلت فيها المواد كيفما اتفق
تحتوي على بعض الفصول في حقوق التملك والموارث ولكن معظمها نظام فيما يجب
عمله في السرقات وحوادث القتل .

وكان البربر يرون ان الخصومات بين افراد ليست سوى جرائم ليس من شأن الحكومة

التدخل بها فإذا وقعت جناية قتل فمن شأن القاتل أو أسرته ان ينقموا من القاتل او من ذوي قرباه فكل شدة تؤدي الى انتقام اضطراري بين الأسرات تشبه الانتقام المألوف الى اليوم في جزيرة الكورس . ولقد كانت المحكمة لا بطلان هذه الفظائع تكره المحرم ان يدفع غرامة الى آل القاتل ليكفوا عن اخذ الثار . وفي قوانين البربر تحديد دقيق لقيمة هذه الغرامات فلكل اسرى قيمة بحسب حاله فإذا هلك فالقنائل يؤدي قيمته برمتها وإذا جرح يدفع القاتل جزءاً من قيمته على نسبة شدة الجرح وإذا ضرب رجل رجلاً في رأسه وشجعه يدفع ١٥ سولاً من ذهب (السول خمسة فرنكات) وإذا ضربه برأيه وأخرج منه ثلاث عظام يفرم بثلاثين سولاً وإذا ضربه على أم رأسه فقطع يده يفرم بخمسة واربعين سولاً . وإذا قطع رجله او يده او جدد انفه يفرم بمئة سول وإذا بقيت اليد المقطوعة معلقة يفرم فقطع بخمسة واربعين سولاً وإذا نوت اليد واستوصلت يفرم باثنين وستين سولاً . وإذا قطع له ايمام يده او رجله يفرم بخمسة واربعين سولاً . وإذا قطع له اصبعه الثانية التي يشد بها القوس يفرم بخمسة وثلاثين سولاً وفي الاصبع الثالثة يفرم بخمسة عشر سولاً وعن الخامسة يفرم بخمسة سولات وعن الخنصر يفرم بخمسة عشر سولاً . وكانوا يحكمون على كل فرد في المحاكم بقانون شعبه قال أسقف في ليون في القرن التاسع ليس من النادر ان يجلس خمسة اشخاص معاً ويكون لكل منهم قانونه الخاص .

مملكة شارلمان

الكارولنجيون — لم يوفق ملوك الافرنج ان يخضعوا رعاياهم البربر اخضاع طاعة وعلى العكس فانهم نهضوا على التدرج جميع الاملاك الامبراطورية ليكون مقاتلتهم على مقربة منهم فقد المحاربون ارباب أملاك عظمى وسكنوا في اراضيهم بين عبيدهم وخلعوا ربة الطاعة فامسى الملك الميروفنجي شخصاً خاملاً منزلاً . وقد نشأت في شرق المملكة من انحاء اربين أسرة من كبار ارباب الاملاك لها بعض احترام من قومها يؤهلها الى خضوع مقاتلة بلادها لامرها ودعا رئيس هذا البيت نفسه بدوق الافرنج ولما كان هو لا في الافرنج في الشرق اكثر مضاء ونظاماً استباحوا حتى افرنج الغرب وغدا ملكهم مدير القصر لدى ملك الميروفنجيين واصبح السيد الحقيقي في المملكة عامة وبعد نصف قرن اراد احد الدوقات وهو يبين لبريف ان يلقب نفسه ملكاً فقتل البابا زاخري رأيه فاجاب بان من حصلت له السلطة الملوكية يجب ان يكرم (٧٥٢) وعلى ذلك

نودي ببين ملكاً على الافرنج وجاء القديس بونيفاس يسجد له هو وامرأته بالزيت المقدس فاصبحت الأسرة الكارولنجية من ثم أسرة ملوكية يحترمها الشعب وتقدسها الكنيسة .

شارلمان — كان شارلمان بن بين أقدر ملوك البربر على الإطلاق فقد اخضع سيفه جنده جميع شعوب ألمانيا وتقدم الى الشرق نحو الالب الى الغرب نحو الابر وملكته عبارة عن فرنسا وألمانيا وإيطاليا الشمالية^(١) وقلق الباباوات في إيطاليا على ذلك العهد وحاذروا من اللومباردين ومن ملوك البيزنطيين حتى انهم لم يكونوا في رومية من القوة بحيث يحترمهم الناس على الدوام . وكاد البابا ليون الثالث ذات يوم ان يذبح في إحدى الفتن وضرب وديس بالارجل واضطر الى الفرار واستنجد الباباوات غير مأمرة بملك الافرنج (بين وابنه شارلمان) وكانوا يحتاجون الى حام قادر يحميهم فظهر من شارلمان انه كفؤ للذب عن حماهم ومناذرة من عاداهم . انتخب البابا ليون الثالث الجديد سنة ٧٩٥ فبعث الى شارلمان بمفتاح قبر القديس بطرس المقدس وعلم مدينة رومية طالباً اليه ان يبعث باحد يأخذ باسمه يعمة الشعب الروماني فاجاب شارلمان انني راغب ان أعقد معكم محادثة لا يعض ابرامها يكون سداها الاخلاص ولحمها الحب حتى انال البركة الرسولية من قداسكم ويكون لكرسي الكنيسة الرومانية المقدسة من اخلاصي مدافع على الدهر . وجاء شارلمان الى رومية سنة ٨٠٠ فتوجه البابا ونادى به امبراطوراً وعلى رواية اجنهارد صديق شارلمان ان هذا لم يتمدد هذه الحفلة بل ترك البابا يعمل ما يريد قال ولو شعر بما يراد عمله لما دخل الكنيسة ومع هذا رضي بان يلقب بامبراطور الرومانيين واغسطس وما عدا أحوالاً نادرة لم يرض ان يتخذ بديلاً عن البابا الامبراطوري واحتفظ بلباسه الافرنجي وهو سروال من الكتان مشدود بمصبات وقبض من العوف يئاط به زنار ثم رداء واسع

وهذا التتويج لم يزد في سلطة شارلمان ولم يكن حادثاً خطيراً غاية ما في الامر ان اصبح في الغرب بعد ذلك الحين امبراطوراً يعترف البابا والاساقفة بانه ملكهم وانه حامي الكنيسة . واصبحت هناك سلطتان رسميتان البابا والامبراطور يحكمون الشعب ورجال الدين حكماً مشتركاً .

(١) دع عنك الشعوب الصغيلة فيما وراء عبر الالب التي كانت تودي له الجزية

حكومة الكونتية — لم يحاول شارلمان العمل بمقتضى الامبراطورية الرومانية بل ترك ارباب الاملاك معقون من الضرائب اذ رأى من ريم املاكه الخاصة ما يكفي للانفاق على قصره والجيش لا يكلفه شيئاً فليس عليه من ثم الا ان يفشى الامن ويقيم ميزان العدل ويجمع المقاتلة اذا احتيج اليهم فكان الكونتية هم الذين يتولون هذه الوظائف ولكل مدينة (مثل تور انجر شارتر) كونت واحد وهو في العادة اعظم ارباب الاملاك في ذلك المقع فكان هذا الكونت يحكم باسم ملك في كورته وحكمه نافذ على من تحت يده فيدعو الحاربين للحملات ويطارد الاشقياء وكان كثيراً عددهم يومئذ ويجمع كل سنة عدة مجالس للحكم في الخلاء يحضرها ارباب الاملاك في تلك الكورة مدججين بأسلحتهم وكانت الكونتية في حاجة الى من يراقب حركاتهم اذ كانوا من السطوة والاستقلال في بلادهم حتى ان بعضهم دعوا انفسهم كونتية بنعمة من الله ولذا كانوا كثيراً ما يستعملون سلطانهم لاضطهاد السكان . قال الكايشوليرليون نريد ان لا يكره الكونتية الرجال الاحرار ان يجزوا لهم عشب مروجهم او يحصدوا لهم حصادهم وان لا يأخذوا بالقوة والاحتياط املاك الفقراء .

فكان المرسلون من قبل الملك يطوفون كل سنة البلاد ليراقبوا اعمال الكونتية فيجمعون السكان في كل بلد ويسألونهم عما يشتكون منه ثم يحملون الكونت على انصافهم مهددين اياه بغضب الملك عليه ولما سقط اعتبار الملك لم يستطع انقاد مرسله غدا كل كونت ملكاً صغيراً وتآلفت من كل كونتية مملكة صغرى

رجال الدين في الحكومة — اصبح الاساقفة ورؤساء الاديار منذ ذلك العهد من عليا القوم وارباب الاملاك الواسعة فيهم . ودخلوا على عهد شارلمان في الحكومة فكانت تعقد جلسة سنوية في قصر الملك للنظر في المسائل فيتشاور الاساقفة ورؤساء الاديان مع الكونتية ورجال الجيش واذ كانت هذه الفئات متورة اكثر من غيرها فهي التي كانت تسن القوانين وتدونها . وكان لكل مدينة كونتها وأُسقفها فجعل شارلمان الأسقف مساوياً للكونت وامرهما ان يحكما معاً قائلين اننا نريد ان يعين الاساقفة الكونتية ويساعد الكونتية الاساقفة ليمكن كل من الفريقين ان يقوم بعمله حق القيام . فكان على الاسقف ان يحرم اللصوص والعصاة وعلى الكونت ان يكره بالقوة من كانوا يعصون الاسقف ومكافأة للسلطة التي منحها الامبراطور لرجال الدين اصبح هو نفسه زعيم الكنيسة او أسقف الاساقفة فكتب الى البابا : « ان من شأنى ان

أوقع عن كنيسة المسيح المقدسة في الخارج من سطوات الكافرين وإن أعزى على الداخل
بصر على اللاهوت الخليلي « فالامبراطور هو الذي يعين الاساقفة ورؤساء الادبار وهو
الذي يرأس الجامع المقدسة

ولم يكن ملوك الفرنج من ثغوب الفتن بحيث يميزون بين السلطة الزمنية والسلطة
الروحية بل كانوا يمزجونها ويجعلون زمامها في يد واحدة - وهذا المزج في السلطة هو
العلامة الفارقة في الحكومة الكارولنجية - فالتحت زمام عدة قرون بين الامبراطور
زعيم الدولة والبابا زعيم الكنيسة - ولم تقدم معاونة الاساقفة للكنوتية ابداً فقد كتب
شارلمان سنة ٨٨١ في مرسوم صدر عنه : أنا نريد ان نخلو باساقفتنا وكوتيتناواكلهم
خاصة ونبحث عن السبب الذي من أجله لا يجهلون ان يعين بعضهم بعضاً وعندها
تجري المناقشة فتقرر الخطة التي يجب على الاسقف ان يخطها نفسه في المسائل القبلوية
والخطة التي يسير عليها الكنت او غيره من رجال الدنيا في المسائل الكنسية « وكان
هذا هو الحد الفاصل بين سلطة رجال الدين والحكومة التي بحث عنها شارلمان ولكن
هذا الحد لم يوفق هو ولا أحد من امبراطرة القرون الوسطى الى التفرقة به

الجيش - عرف شارلمان بأنه زعيم المغالين فقد قام في حياته بثلاث وستين حملة
ولذلك قضت الحال ان يكون الشعب جيشاً يكفي تلك الحروب التي لا تفتأ قائمة -
كان جميع ارباب الاملاك من المزارعين الفراء بحسب عادة الشعوب الجرمانية فلذا أراد
الملك ان يجعل حملة يصدر أمره اليهم بالاجتماع في مكان بعينه فلذا ينظم الامر
اليوم لامتناس لم من الوقوف على قدم الاستعداد لعدا اما الطوائف منهم فخرموص
غرامة شديدة وعلى الاساقفة ورؤساء الادبار من الخاصة ان يهيئوا الدعوة كما يهيئها
العامة والملك كتاباً للدعوة للاجتماع ورد على رئيس الدين قولاً : تأمركم ان تحضروا في
اجتماع يوم ٢٠ حزيران في رجالكم المسلحين المستعدين على ما يجب فخطبوا الى
المكان المعين وأنتم من الاستعداد على جانب يتيسر لكم معه ان تحاربوا في كل مكان
تأمركم به وتعني بذلك ان تكونوا مسلحين ثلثة اذواكم وذخائركم فيكون لكل فارس
ترس ورمح ولصنف سيف وسهم وجبهة مملوءة وتحمّل مركبة تحسّم أدوات مختلفة
الاجناس من مثل القروس والمراة والمكالب والمخار والمعاول والسماحي وغير ذلك
من الادوات التي يحتاج اليها في الجيش وتحمّلون موتكم من ثلاثة أشهر وسلاحاً
والسنة من سنة «

فكان يقضى على الغزاة ان يتجهزوا ويتسلحوا على نفقتهم ومن قل ما لهم يأتون
رجالاً وسلاحهم ترس طويل ولكن كل من كان لهم مال يجاربون فرساناً راكبين
ومدججين بشكبة حديد . وهذه الشكبة غير مستخدمة بل استعمالها الفرسان البارتيون
وكانت أجسام الفرسان الذين يقاتلون في الجيش الروماني في القرن السادس مملعة
على تلك الصورة ولما أطلقت للمحاربين حربتهم ان يتجهزوا كما يشاؤون آثروا من
الجهاز ما يقهر الخطر أكثر من غيره وهكذا لم يبق مشاة في الجيوش وفي أواخر القرن
التاسع لم يبق في أوروبا الغربية من المقاتلة الا الفرسان اللابسون للحديد وهو لاء هم
فرسان القرون الوسطى .

دستور الحكومة — ان المراسيم الصادرة عن شارلمان هي مجموع ما كتبه حكومته
وهي عبارة عن منشور ونقارير وكتب ولوائح بسيطة ولم يكن معظم هذه المنشورات الا
ابن ساعته صدرت في غرض خاص ولكن من القوانين ما يجب تطبيقه في المملكة كلها
وقد حفظ بعضها ودخل في مصطلحات الشعوب في القرون الوسطى .

الآداب والمدارس — كان شارلمان يحب الآداب حباً ساذجاً كما يحب غير المتعلمين
ان يروا أحياناً السطور المكتوبة يحبها لانها تترأى له انها غير منفصلة عن الدين المسيحي
واليك ما كتبه سنة ٧٨٧ الى جميع اساقفة مملكته وروساء اديارها : « احسنوا استعمال
دكانكم بعد مشاورة المخلصين لنا فقد رأينا ان الأسقفيات والاديار في حكومة ما يجب
عليها زيادة على الحياة المنظمة والقيام بالدين المقدس ان تبذل غيرتها في درس الآداب
وان تعلمها الى من بقدر على تعلمها بعناية الله فان من يريدون ان يرضوا الخالق بان
يعيشوا عبثة راضية لا يتجاهلون في سبيل مرضاته بان يتكلموا اطيب الكلام . ولما
كان قد كتب اليها في السنين الاخيرة من عدة اديار يعرفونها ان الاخوان الذين يعيشون
فيها يضاعفون صلواتهم لنا فقد لاحظنا في معظم هذه المكتوبات التي فيها شعور الحق
كلاماً غثاً لا مائدة فيه ولذلك بدأنا نخوف من ان يقل العلم في أسلوب الكتابة وان
يفقد الذكاء فيكون اقل مما يجب لنفسه الكتب المقدسة ولذا نعرضكم ان تتنافسوا في
الغيرة على التعلم لتستطيعوا ان تحسنوا فهم الكتب المقدسة على أيسر وجه وتحيطوا
بأسرارها احاطة راسخة » وعليه فقد امر ان يكون في كل كنيسة كاتدرائية او دير
مدرسة فيكون في صحنها صف يقوم رجال الكنيسة على تخريج الاولاد فيه وكثيراً
ما كان يحضر شارلمان بنفسه في الدروس فيتعلم الاولاد القراءة والكتابة اللاتينية »

وترنيم الصلوات ومن هؤلاء الاولاد كان شارلمان يختار الاساقفة ورؤساء الاديان .
ولقد كان شارلمان يحب الادباء فجمع حوله عصابة بمجمع علمي مصغر ولقب
الرجال الذين يؤلفون هذا المجمع باسم رجل عظيم من القدماء فاسم الكوين هوراس
واسم اديلارد اوغسطينوس واسم انجيلير هوميروس واسم تيودولف بيننادر واسم شارلمان
داود . فيقضون الوقت في تأليف اشعار لاتينية وفي القراءة والانشاد وحل المعميات
والاحاجي واليك جملة مستخرجة مما كتبه الكوين: ماهي الكتابة ؟ — حافظه التاريخ —
مالكلام ؟ — خيانة الفكر — من يولد الكلام ؟ — اللسان — ماهو اللسان ؟ —
المدق الذي يضرب الهواء — ماهو الهواء ؟ — حافظ الحياة — ماهي الحياة ؟ — فرج
السعداء وترح البائسين وتوقع الموت . »

والادبيات المأثورة عن هؤلاء الادباء يرغبون فيها مع انها صيانية تشبه تقارين
ابناء المدارس ولم يكن للبرابرة من الثقة بانفسهم مايجرون معه على ان يكونوا مبتكرين
هم انفسهم بل كانوا يطعمون كل الطمع في احتذاء مثال القدماء ولذلك لم يوفقوا الى
ايجاد ادبيات باقية على ان العناية التي بذلها شارلمان ورجال الدين وادباء عصره لم تكن
عقيمة بأمرها فانه منذ نحو قرنين لم يكن في غالباشي يشبه الادب وما قفا دونوا كتاباً
بل ولا اخباراً وتكتب الكتابات الرسمية التي لا يستغنى عنها (كالمواثيق والحبات
والوصايا) باللغة اللاتينية البربرية وهي من رقى الخط بحيث يصعب حلها وبمد
شارلمان اصبحت اللغة اللاتينية مضبوطة جداً والكتابة مقروءة للعناية تكاد تشبه
الكتب المطبوعة .

خراب مملكة شارلمان — لم يطل عمر مملكة شارلمان فان الافرنج لم يستطيعوا ان
يقلعوا عن عاداتهم في ان يروا الممالك كالاملاك تقسم بعد موت الملك بين اولاده على
السواء بيد ان شارلمان نفسه وزع بلاده بين اولاده الثلاثة . فعاش لويز وحده
وورث الملك ورزق لويز هذا ثلاثة اولاد ايضا فاراد مستشاروه من رجال الكنيسة ان
يرث الملك بكر اولاده فقط لتبقى مملكة واحدة وعضد الغزاة الافرنج اصغر الاولاد
سناً ولكن غلب حزب الوحدة على امره فتعددت الممالك بتعدد اولاد كل ملك فكادت
نقل وتكثر على تلك النسبة . اما لقب الامبراطور فلم تثنأ تجزئته بل كان يطلق على
ملك واحد ويكون على العادة من اضعفهم سلطة مثل ملك ايطاليا وبعد سنة ٩٢٤ لم
يعد احد يليق لهذا اللقب . فرأى مؤلفو ذلك العهد والحزن آخذ منهم تلك المملكة

العظمى تفتت . وقد آلف فلوروس لشماس ليون مرثية بعد عقد عهدة فردون قال فيها : بدلاً من ملك لنا عدة أفيال وبدلاً من مملكة لنا اجزاً من مملكة . وما من أحد إذ ذاك كان يظن ان تلك القطع تصبح ابناً أمماً وان ذاك الاختلاف يكون ابرك من تلك الوحدة الرومانية

النظام الاقطاعي

المجتمع الاقطاعي

الطبقات الجديدة — اضمحلت في القرن العاشر القوانين الخاصة للام البربرية المختلفة فقبل سكان جميع اوروبا تقريباً عادات واحدة وأمتاز منذ ذاك الحين بعضهم عن الآخر لا بامتياز بل بفناتهم ومعلمهم ولم يعد يحرج ذكر اللافرنج (الفرنك) ولا للرومان ولا للبورغونديين بل أصبحت الشهرة للفرسان والسادة والشمامسة والفلاحين قال احد الاساقفة في القرن الحادي عشر ان بيت الله مثل قن ابنائه من يحارب ومنهم من يصلي وغيرهم يعمل . وبهذا المجتمع الجديد ابتدأ نظام دام الى أواخر القرن الخامس عشر .

الفرسان — قضى على كل رجل حر منذ عهد شارلمان ان يكون جندياً وقد جاء بعض الاسباب من طردهم المسلمون يسكنون في اقليم لانكدوك فقال لويز لدونير وقد فصحهم أراضي يستقرونها انهم كسائر الرجال لحرار يذهبون الى الجيش . وكل من لا يريد ان يخدم الجندي او لا يستطيع ان يجهز نفسه للحرب يفقد حريته . فلم يكن غير رجال السلاح يعدون من اهل المجتمع ومنذ القرن التاسع كان الجندي يحارب راكباً حصاناً على الدوام (واصبحت كلمة ميل اللاتينية ومعناها الجندي مرادفة لكلمة فارس) فينقلد حاماً من الفولاذ ورمحاً طويلاً من خشب الدردار ويحمل للتوقي من الفرب مجناً طويلاً من الخشب والجلد وبلبس في الوغى قميصاً مغشى بحلق الحديد وفي أواخر القرن الحادي عشر استعير عن هذا التقيص بأخر من زرد الحديد يصل الى الركبة ويغمر حتى الذقن والرأس محفوظاً بخوذة من الفولاذ والانب بمخبرين يتنفس منها . وهذا الجهاز ثقيل متشعب يقضي لاستخدامه عادة طويلة وخادم خاص ليحمل المجن ويضع الخوذة والدرع وهذا الخادم يسمى حامل المجن وباللاتينية (armiger) حامل الاسلحة

وفي القرن الحادي عشر انتهت الحال بهذا . الرجال المساحين ان يوتقوا منهم

طبقة وراثية فكان الابناء في أسرة من الفرسان يصبحون فرساناً والبنات الفرسان لا يتزوجن الا من فرسان ولا يحق لاحد ان يذبح فارساً الا اذا كان ابن فارس .
ولدت الفروسية صناعة بل منصب ورتبة ولم يكتشف الفرسان على ذلك العهد ان يكونوا رجالاً أحراراً بل دعوا انفسهم « الاشراف » ودخل في تلك الطبقة الممتازة الخدمة وحاملوا الجان من بعد القرن الثالث عشر فاصبحت كلمنا فارس وحامل الجان مرادفتين لكلمة شريف .

السادة — كل رجل عظيم في هذا المجتمع العسكري بأسره بعد رجل حرب حتى الكوثية والدوقات والملوك فبين الفرسان اذاً كثير من كبار ارباب الاملاك وقد نالوا من الملك املاكاً عظيمة على سبيل الهبة او ورثوها من آباءهم وتكون هذه الاملاك على الاقل قرية بربتها وفي الاعم الاغاب ان تكون عدة قرى . ويدعى هؤلاء المالكون العظام بحسب البلاد فتمنى « البارونات » الرجال ومعنى « سير » او « سنيور » السادة او الاغنياء ويلقب نساؤهم بدام اي سيدة . واذ كان اولئك السادة اغنياء فهم في حل من ان يأخذوا لخدمتهم فرساناً آخرين ويذهبوا الى الحرب في رأس جيش صغير واصطاحوا على اقتناذ علم لم يجتمعون تحته فيضمن من شملهم ولذلك سموا العلمين

Bannerets

المعطايا والاقطاعات — اعتاد المقاتلة البرابرة منذ عهد شارلمان ان يقسموا للزعيم الذي يقو بالانفاق عليهم بالاخلاص له والاستانة دونه فالمقاتل عند ما يقسم هذا اليمين والزعيم متى قبله يكون اربابهم طول الحياة فكان الزعيم يدعوا المقاتل أميني او رجلي او مقاطعي او عبيدي وهذا يسمى زعيمة سيدي فالمقاطع يصحب سيده الى الحرب ويخدمه حتى على المائدة فكان خادمه ورفيقه في الحرب . والسيد يؤدي اليه لقاء خدمته ما يعوله ويعطيه اسلحة والبسة وحصاناً واحياناً يعطيه ملكاً

ولقد اصبحت العادة في الافضال على المقاطعين باراض يستثرونها عامة سيف فرنسا أواخر القرن التاسع (وربما نشأ ذلك من تكون رجال الحرب نادرين سيفه البلاد الفرنسية) فالارض تعطى لقاء اجرة اقطاعاً او مستعمرة ثم اصبح سيف حكم العادة المطلقة ان كل مقاطع يتناول اقطاعاً وانه لا سبيل الى ان يملك المرء اقطاعاً ان لم يكن مقاطعاً لاحد ارباب الاملاك . واذا مات الاقطاعي يحق لابنه ان يخلفه وه كذا يشولى الفرسان ابا عن جد شؤون اقطاعاتهم فيغدور مستقلين عن ساداتهم الا قليلاً ثم ان

السادة اقساموا السادات اعلى منهم بان املاكهم نالوها منهم على سبيل الاقطاع فيقسم الدوقات والكونتية للملك الذي كان يمنحهم الحكم اقطاعاً . ويكاد يكون جميع السادات سادة ومقاطعين في آن واحد والاراضي الاقليلاً كانت تعتبر اقطاعات ومن هنا نشأ نظامها .

وهذا النظام الذي وضع في القرن العاشر قماً بشبه طرائد عهد شارلمان على ان الانشاء والاعتبارات بقيت بحالها فان المقاطع يقسم ايضاً فيما يرتبط بها مدى الحياة وهذا ما يدعونه العطية سموها *Hommage* لانها تجعل المقاطع رجل السيد واليه الصورة الشائعة في هذا الباب : ايها السيد لقد أصبحت من رجالك صاحب الاقطاع الفلاني واحدم ان ارعى لكم حقكم وادفع عنكم كيد كل من يحيا ويموت . وبعد المقاطع لسيد الاخلاص له والمعاونة والمشورة ومعنى الاخلاص ان لا يضم مقاطعته ولا يقاتله ولا يعتدي على امرأته واولاده . ومعنى المعاونة له ان يعاونه سواء كان في المقاتلة دونه او في انزاله احسن منزل واعطائه دراهم ومعنى المشورة ان يتقرب منه ينصحه ويعينه خصوصاً على الحكم والتصدر . وانتهت هذه الواجبات بان ضعفت وقلت حتى ان العطية لم تكن الاصطلاحات مألوقة ولما غلب جو فروي دانتجو تهبو دي بلوا في القرن الحادي عشر اضطره ان يتنازل له عن كونتية تور على سبيل المقاطعة وان يعطي لاسيره عطية

رجال الدين — كان ينظر الى رجال الدين (اعضاء الكهنوت) بانهم خدمة الله وكانوا قادرين بفنهم ايضاً . ويعتقدون ان اعطاء مال او اراضي للكنيسة كان من آكد الاسباب لمحو السيئات وانقاذ الروح فكان زعيم الكنيسة المقدس والرهبان خدمة لـ قدس يكافئون المعطي بتدخلهم في امره مع الله . وقد عثر في عطية خصصت لاحدى الكنائس المخصصة للقدس ابين (١١٤٥) مانحه : « اعطيت الى ابين الشهير العظيم جزءاً من ارثي في الارض ليكون لي من صلواته وصلوات اتباعه المغفور عن خطيئتي والعجاة الابدية » وكانت صكوك الهبات تبدأ بالعبارات الآتية : « علاجاً لروحي وارواح اجدادي » وحياتاً يزيدون لدفن جسدي ولذلك يهب الواهبون اموالهم ليدفنوا في الكنيسة ثمة . فكان رجال الدين يأخذون حياتاً قرصاً يرمونها وهي عطايا السادات العظام وحياتاً قطع ارض او ملكاً وهي عطايا الفرسان والفلاحين فالدير الذي يبدأ بان يمنح ملكاً واحداً يملك مئات من القرص

بعد والاساقفة وروماء الاديار وهم اصحاب تلك الاملاك العظيمة يصحجون سادة عظماهم
ليس بعد عظمتهم عظيمة .

العامة — اصبح جميع ارباب الاملاك خلال حروب القرن التاسع يكرهون على
الحضور الى الجيش وكانوا الاقليلا من حلقة الفرسان فالارض كانت من ثم ملك
الكنائس والسادات والفرسان وكلهم من كبار ارباب الاملاك لا يزرعون بانفسهم
وكانوا منقسمين الى محلات كبرى تسمى المدن وفي العادة ان المدينة كانت عبارة
عما ندعوه اليوم قرية والجملة كانت بسعتها كالمديرية . وتكاد تكون جميع القرى
الفرنسية يرد عهدا الى تاريخ هذه المحلات في القرون الوسطى فالفلاحون الذين
سكنوا هذه المدن سموا باسمها فسموهم العامة فلم يكونوا مالكيين للارض بل كانوا يتوفرون
على زرعها فقط فمنهم من كان من قدماء الرجال الاحرار الفقراء دخلوا في خدمة
ارباب الاملاك كالمستعمرين او المزارعين ويسمون الاحرار والآخرين هم من نسل
قدماء عبيد ارباب الاملاك ويدعون باسم العبيد الرومانيين وهو لاهم العبيد على ان
العبد لم يكن كما كان العبد الروماني بل كان ساكنا في الارض التي يتوفر على زراعتها
وله امرأة وبيت وحقل فسيده لم يكن يستطيع ان يجليه عن قربته ببيعه الى مكان
بعيد ولا ان يأخذ امرأته واولاده ولا ان يأخذ منه داره ولا الحقل الذي كان تركه
لاجدادهم وما كان العامي العبد اذا تخطأ في درجته عن العامي الحر

حالة العامة — كان في المحلة العظمى في القرون الوسطى نوهان من الاراضي .
فبعضها (وهو القسم الاعظم) ترك للفلاحين يحرثونها ويحفظون بغلاتها والآخر (وفي
العادة ان تكون الاملاك القريبة من دار السيد) بقي لصاحب الملك ويقضي على
الفلاحين ان يحرثوها ويزرعوها ويحصدوها وفي ايامنا ترى الزراع عند ما يكونون غير
مالكيين هم عملة بالمياومة او مزارعوهم وزراع القرون الوسطى هم مزارعون في ارضهم وعملة
بالاجرة في اراضي المالك وهم بعضهم مع البعض من الاب الى الابن وصاحب الملك
لا يستطيع ان يأخذ ارضهم التي يشغلونها وهم يتوارثونها كما يتوارث الملك ولكنهم لقاء
ذلك يتعملون عدة اعمال وحقوق اقطاعية

(١) يعطون المالك اجرة الارض وضرائب ومخصصات من الخنطة والعلف والبيض
والدجاج ويسمون بها العادات لانها مقررة بحكم العادة ويميز الفلاحون العادات الجميلة
اي المخصصات الموضوعة من القديم عن العادات السيئة من مخصصات يضعها السيد

بالقوة خلافاً للعادة

(٢) يجب عليهم ان يذهبوا الى ارض السيد بحرثونها ويحصدونها ويسعدونها ويقصونها ويحففونها ويقطعون الخشب ويأتون بالقش وهذه هي السخرة .
(٣) عليهم ان يحملوا حنطتهم لطحنها في طاحون السيد وان ينقلوا الخبز الى فرن السيد ويحملوا العنب الى معصرته ويجب عليهم ان يدفعوا عن هذه الخدمة المقررة عليهم ما يقتضي لها من النفقات كما يحتم عليهم في السوق ان يستخدموا قياس السيد وميزانه ويدفعوا اجرتهما .

(٤) يتقاضون في قضاياهم الى السيد واذا ارتكبوا جفئة يدفعون للسيد غرامة يأخذها لنفسه واذا ارتكبوا جناية يحكم عليهم السيد بالاعدام ويصادر جميع ما يملكون .
والعدل اي حق جباية الغرامات هو دخل يقسرب الى جيب السيد وبعد سيفه جملة ما يملكه فيقول السيد : عدلي في المحلة الفلانية . فهو يبيعه ويعطيه اقطاعاً ويقسمه بين بنيه وليس من الامور النادرة ان يملك فارس نصف اربع القضاء في قرية او القضاء في بعض البيوت . وينهب السيد سيفه ارضه مشنقة رمزاً الى حقته والصوص الذين يصلهم عليها دليل ناطق بحقه . في هذا الشأن . واذا تنازع سيدان في تولي احكام العدل في قرية (كما يحدث احياناً) يجي رجال السيد المطالب بزعون المصلوب بأنون به الى مشنقة سيدهم واذا ربح القضية السيد الذي صلب المصلوب تعاد اليه جثة مصلوبه والا فيرجع اليه قميص مملوء ثياباً بدله ويميد الجثة او صررتها

فالعامة خاضعون كل الخضوع لسيدهم ولا يحق لهم ان يجتمعوا لفض مصالحهم واذا فعلوا يغرمهم بغرامات باهظة فهو قاضيتهم الوحيد . قال احد مشرعي القرن الثالث عشر : انك يا هذا اذا اخذت شيئاً من عبدك زيادة على المخصص لك في القانون تأخذه وانت على خطر كما يأخذه اللص وليس ينك وبين عامليك من قاض الا الله . ومع هذا الحال العامة كان اقل شدة مما كان عليه حال الفلاحين العبيد في القديم ولكنهم ليسوا بعدا حراً حقيقة فالفرسان يحترقونهم لانهم يشغلون في الارض ولانهم عزل من السلاح واصبحت كلمة عامي في لسانهم مرادفة لكلمة نذل .

(١) ندر جداً ان قام الفلاحون بثورة في القرون الوسطى ولانعلم من ثوراتهم سوى ثورة ٩٩٧ في نورمنديا وثورة الفطائع المعروفة بالحاكية في القرن الرابع عشر مما يدل على ان الفلاحين كانوا راضين عن حالتهم بل انهم لم يكونوا يدرجون الخروج من حالتهم

الاخلاق

الحروب — جرت عادة الفرسان ان يتقاتلوا عادة لم تصبح قاعدة فيحق لكل رجل بعمل السلاح ان يخوض غمار الحرب لاهانة تلحق به اولاهتداء على محله فيبحث الفارس الى خصمه فغازه او بعض شعرات من خروقه دليل اعلان الحرب . وبدخل اتباع الخصمين وذوو قرباهما في الحرب شأوا اماً ابوا وبنشالون على محلات العدو يستاقون ماشيته وبعاصرون قصره ويحاولون القبض عليه ليفندي نفسه منهم . وتصبح الحرب من ثم لعباً وتجارة فاللعب ليس فيه خطر كبير على المسلحين من الرجال بالدروع . واليك كيف وصف اوردر بك فيثال حرب بريمول (١١١٩) بين ملك فرنسا وملك انكلترا: بقي ١٤٠ فارساً أسرى عند الغالب ولكنني علمت انه لم يقتل من التسعمائة شخص الذين حاربوا سوى ثلاثة اشخاص فقط وذلك لانهم كانوا مكتسبين كلهم بالحديد من مفرقهم الى قدمهم وكان خوف الله والاخوة في حمل السلاح تدعوهم الى الاقتصاد في الطعام والتوقف في ضرب الاقران فيؤثر القرن ان يأمر صاحبه على ان يقتله . وكثيراً ما يرى الفرسان من الاوفى ان يطلبوا من الفلاحين والتجار الفدى فتقلب الحرب الى لصوصية . وكان في عامة البلاد سادة على مثال تومادي مارل الذي كان يستوقف التجار على الطرق ويسلبهم اثقالهم ويسجنهم في سجن قصره ويعذبهم ليكرهم على ان يفتدوا منه انفسهم . وقد ظل حتى الحرب مرعياً في كثير من الولايات الى القرن الخامس عشر فلم يرد الفرسان ان يتخلوا عنه فكانت الحرب شغلهم الشاغل طول حياتهم . واليك كيف قص فوك كونت دأنجو سير خاله جوفروي : « ان خالي صار فارساً سيف حياة ابيه وكانت حربه الاولى هي التي شهرها على جيرانه فقام بقنايلين احدهما على كونت بوانو والاخر على كونت مين واسرهما كليهما وحارب اباه ايضاً^(١) ولما قضى ابوه صارت اليه كونتية آنجو فخارب كونت بلوا وأسره في الف من فرسانه واضطره الى ان يتخلى له عن تورين ثم حارب غليوم حاكم نورمنديا وحارب كونت بويرج وكونت بوانو وفيكونت نوار وكونت فانت وكونتية البريتونيين في رين وهوغ كونت مين الذي سيخافه . ومن اجل هذه الحروب وما بذله فيها من الشجاعة لقب بماتزل وحسنت خاتمته لانه رجع عن الفروسية وعن زخارف هذه الدنيا قبل وفاته بلبلة وترهب في (١) اضطر جوفروي هذه المرة الى الخضوع فأكراهه ابوه بحسب عادة جرمانية قديمة ان يجي بتمثل امامه على بدبه ورجليه وجل فرس على ظهره

دير القديس نقولا الذي بناه هو وابوه تزهداً ووقفوا عليه الوقوف من الاملاك
الابراج والقصور — كان السادة في عهد تلك الحروب في حاجة الى تحصين بيوتهم
وكان التحصين في القرن العاشر مشعباً جداً وهو عبارة عن حفرة عميقة يجمعها من
الخارج منحدر عليه هرائش واشجار وفي وسط ذلك السور ينشؤون أكمة وبيت السيد
بني في ذروتها وما هو الا برج قوي من الخشب وبابه عال جداً عن سطح الارض ولا
سبيل الى الوصول اليه الا بالمرور على لوح من الخشب متحرك منحدر من الباب الى آخر
الخنديق . ولتم العدو من احراق البرج بغطائه بجلود حيوانات سلخت حديثاً . وهذه
القلمة الغليظة هي البرج او بيت السيد اما سائر الاماكن فتعمر في السور في سفح الاكمة
(فمنها مساكن للخدم واصطبلات واهراء) وكلها من توابع البرج .

واخذ القوم في القرن الحادي عشر (في بلاد الجنوب اولاً) يستعيضون عن
العرائش وبرج الخشب بحائط و برج من الحجر على نحو ما كان للرومان حوالى مدنهم
الحصينة وسموا هذه القلاع باسم لانيي كاستل او قصر (موقع صغير حصين) فقصر
القرنين الثاني عشر والثالث عشر عبارة عن سور من الحجر على جوانبه ابراج وهو محاط
من كل جانب بخنادق عميقة او هوى وهاد وقد بنيت عند الاستطاعة في مكان
حصين على منحدر عقبة كورد او شقيف في ارض سهلة على اكمة صناعية فيها انواع الدفاع
فاذا جاء العدو يرى اولاً في مقدمة الخندق ما يصد عنه المرمى ثم الخندق الذي يجتازه
سكان القصر يصل بينهما معبر نقال معاق بسلاسل وعليه حواجز ثم يصل الى اسفل
حوائط السور التي اغلظوا سمكها ويقف المدافعون على الطريق المدور الذي يمتد في
الداخل على الحائط فيقذفون السهام والحجارة من الشرفات (زغاليل) ومما في الخشب
المعلقة فيحتوي على مساكن اهل القصر والحاربين والاصطبلات والحظائر والاهراء
والكنيسة وبيت السيد وهذا البيت هو برج جسيم (من طراز بوجانسي من القرن
الحادي عشر علوه اربعون متراً وعمقه ٢٤ وطراز كومي من القرن الثالث عشر علوه
٦٤ متراً وعمقه ٣١) وهناك القاعة العظمى التي يستقبل فيها السيد ضيوفه (للسادات
المظام فقط خارج قصورهم ردهة استقبال وهي القصر) وغرفة منامه وغرف أسرته
وخزائنه وسجلاته وفي ذروة ذلك المكان السطح الذي يشرف منه الدبدبان على الفواحي
وفي الاسفل على طبقتين من الارض المحبس او المطبق وهو مظلم رطب لا يخرج منه الا
بسلم . فاذا دام العدو السور يستطيع المحاصرون الذين يعتصمون في القصر ان يدافعوا

عنه رويداً رويداً وطبقة طبقة مادام الدرج الدوار ضيقاً . ويعيش السيد في قصره وباسمه يعرف بعد فيسمى بوشاردي مونمورانسي أو أنجراند دي كومي . وللفارس كذلك بيت حصين و يطلق اسم بيته على اسم أسرته

الفروسية — اسلحة الفرسان ثقيلة الجرم فالواجب ان يتعلم الفارس استعمالها وحملها امتياز يجب ان يرخص للمرء بحملها فالمرء لا يولد فارساً حق ولو كان ملكاً فمن القواعد المطلقة ان لا يكون المرء فارساً الا بعد التخرج في ذلك والاحتفال به . فعلى الشاب اللبى ان يتقن على ركوب الخيل وان يحسن الضرب بالرمح والحسام وان يصمد السلم . وما دام يتقن على ذلك في بيت ابيه يبحث به ابوه الى سيد من اصحابه فيصبح الشاب بعد بضع سنين خادماً يحمل اسلحة معلمه فيقوم صكراعه ويعنى بتربيتها ولباسه شكته ويخدمه على مائدة . ويجعله في فراشه . فقد كان القدماء يرون من أعظم العار ان يخدم الانسان انساناً فلما اتى البربر اصححت الخدمة من أمارات الشرف فالناس يخدم الفارس وهذا يخدم سيده القوامسة (والكونتية) والدوقات ايضا يخدمون الملك على المائدة في الحفلات .

فاذا بلغ السائس أشده يقبله احد الفرسان في جملة رجاله باحتفال وكان هذا ساذجاً اولاً والفارس يدفع الى المبتدي سلاح فارس وهو عبارة عن ترس ودرع ورمح . ثم يصفعه على فقرته بجمع يده فالفارس الجديد يقفز على السرج ويرمح قليلاً وحيثما يتسابق مع مجدار (شخص من خشب) منصوب امام القصر وبهذا يكون الفارس فارساً وبعد حين حوالى القرن الثالث عشر اضيفت الى هذه الحفلة حفلات دينية في الكنيسة فيقام قداس وصلوات ووعظ بوجه الى الفارس اما العادات الفخمة في قبول الفارس على ما بعفونها في الافاصيص الحديثة فلم توضع الا في القرن الخامس عشر . ولكل سائس الحق ان يصبح فارساً ولكن الواجب ان يكون غنياً ليجهز بالسلاح والعدة ويعول سائساً وخدماء ولذلك بقي معظم الشرفاء سواساً طويلاً حياتهم

اخلاق الفرسان — لا يمتاز شرفاء القرون الوسطى عن الفلاحين بشعهم ولا بتهدبهم فمعظمهم لم يكونوا يعرفون القراءة وما شأنهم الا الشرب والطعام والعييد والحرب وكانوا في العادة متوحشين قساة وحيثما جفا غلاظاً فقد قتل ريشاردس قلب الاسد مثال الفروسية ٣٥٠٠ اسير من العرب وقد فقأ عيون خمسة عشر فارساً أسروا في حرب اثارها على فيليب اوغسطس واعادهم الى ملك فرنسا تاركاً لم دليلاً منهم ابق

له عينا واحدة يبصر بها فأجابه فيليب أوغسطس على عمله بأن فقاً عيون خمسة عشر فارساً من فرسان ريشاردس وأعادهم إليهم تحت قيادة امرأة حتى لا يظن أحد كما قال مادحه بأنه دون ريشاردس قوة وشجاعة ولا أن يذهب إلى أنه يخافه . وفي سنة ١١١٩ فقاً أوستاش دي بروئل أحد كبار السادة النورمانديين وصهر ملك انكلترا عوفي أحد الأسراف الذين كانوا عنده رهينة فاحتال والد المغلوقة عييه أن اخذ بنات أوستاش بواسطة جدم وفقاً عيونهن وجدع أنوفهن . وهذا الاغراق في الشدة والقوة البربرية لم يزل مألوقاً إلى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . وقد أصبح الفرسان بحجة التشرد على هذا النحو قساة القلوب غلاظ الطباع ولكن منعتهم بعض الفضائل التي تطلبها الحروب وجعلتهم شجعاناً مقارحين . والفارس السام الأدوات الذي يتقن الشعراء بمديحه ويحاول كل انسان تقليده هو الشجاع أو صاحب الامانة والتدبير . وكانوا اذا سلحوا فارساً يقولون له : كن شجاعاً . والشجاع في عرفهم هو المقدم المفاخر الصادق الذي لا يتكلم بشيء ولا يرجع عن قوله ولا يهتم أبداً اهانة . فالشجاعة والصدق كانت ودامت الصفات الرئيسية في الشرف . والشجاعة معتبرة لا من حيث الخدم التي تؤديها بل لانهم كانوا يرونها جميلة في ذاتها والفارس قد يقتل نفسه حتى على غير جدوى لئلا يخالف أحداً شك بأنه أوجس خيفة . والموت خير من أن يدعى الرجل تدلاً كما جاء في قصيدة قديمة . وعلى الفارس أن يكون صادقاً براً بوعده وقوله وبفطخ خاصة اذا خان بين الاخلاص الذي يقسمه لسيده ويكون كاذباً في ايمانه خائناً في فروسيته ومن العادة في برشالونة أن من علم سيده يده أو طعنه بلسانه أو استباح قصره واستفهام هو من اعظم من ارتكبوا اعظم الخيانات . يفهم ذلك من روح عدة قصائد نطمت في القرون الوسطى . فقد اضطر رنودوي مونتيبان أن يعلن الحرب على سيده شارلمان فهاذر أن يؤذيه اقل ابناءه ولما أسره وقع على رجله طالباً الصنع عنه . ولقد نال بزيه تابع راول دي كامبري ما جلب عليه العار من سيده فسأله سائر الفرسان كيف يستطيع أن يظل على خدمته فاجاب : ان راولاً هو سيدي هو أكثر خيائته من جودا ولكنه سيدي فقالوا لم اجمعون انك محق يا بريه

الشرف — يفاخر الفارس أنه شريف وجندي ويعرف لنفسه فضلاً فلا يشك فيه أحد بل ولا يلحظ ذلك . وليس على أحد أن يضربه أو يهينه أو يعاكره لأن ذلك مما يؤذي إلى أنه متهم بانانته وهو ايضاً لا يتحمل ضرباً ولا اهانة ولا تكذيباً وبشلاً

شرفه في انظار الفرسان وفي نظر نفسه اذا لم ينتقم لقاتله ممن رماه بالمار والشارب. وهذا الشور هو الشرف وهو نتيجة كبرياء او اعجاب شديد فهو ينزل نفسه منزلقرنية ويشعر بالحاجة بانه يريد ان يشركه غيره بهذا الفكر . ولم يكن لليونان ولا للرومان لفظ للتعبير عن هذه الصفة بل انها ذات في القرون الوسطى وستظل الى ايامنا دليل الشريف الحقيقي . فتعطي الشرف والرغبة في بقاء الشرف سلماً يصيح قاعدة سلوك الاشرف ومنقذاً لمكانتهم

حكومة الاقطاعات

استقلال ارباب الاملاك — ضعفت سلطة الملك منذ القرن التاسع فضعفت طاعة رعيته فاعتمد السادات من المانة والخاصة ان يكونوا مستقلين في بيوتهم فكل صاحب ملك (فارساً كان او رئيس دير) هو كالمليك الصغير في املاكه فحراؤه وخدمته هم رعاياه وله الحق ان يقودهم ويغرمهم ويحبسهم ويستنقم وله مشقة خاصة وله مناد يبلغ اوامره الى السكان ويحارب جيوشه وكثيراً ما يصك نقوداً . قال احد فقهاء القرن الثالث عشر ان كل بارون هو مليك في ارضه . وكل محلة هي مملكة صغيرة بحيث ان رجال ذاك الحي يدعون اهل القرية المجاورة غرباء عنهم وكان في البلاد عدة الوف من هؤلاء الاقيال وكثيرون هم فرسان فقط لا يملكون الا قرية واحدة اما غيرهم من الاغنياء فيلقبون بالفاظ سير وبارون ثم ان في كل ولاية رجالاً يلقب بلقب كونت او الديق ويكون اعظم ارباب الاملاك في الولاية ولم يكن اجساده على عهد شارلمان سوى حكام في خدمة الملك بيد ان الملك في القرن العاشر لم يكن له قوة ليستعيد منهم السلطة لانهم اسبحوا كونتية ودوقات ابا عن جد واصبحت دوقياتهم وكونتيتهم اقطاعاتاً اعلى ملكاً وهي كساتر الاملاك يمكن بيعها ووقفها وتقسيمها ايضاً كما وقع لدوقية ناسكونيا (او ان نفعم الى غيرها) كما وقع لكونتية تولوز وشامباينا . واذا لم يعقب صاحبها ولدأ ذكرأ انتقل املاكه الى ابنته ويكون لها منها بائنة (دوطنة) تعطىها زوجها (ويقال عندها ان الملك صار لامرأة) واذا ذلك يكون لكل مالك في مملكة سلطة ملك وكل ملك يحول مملكته كملك . وقد بانث بهم الحال ان يمزجوا بين التملك والملك ولذلك كانت جميع سياسة الملوك في القرون الوسطى سياسة بيوت وامرات وكل ملك كالفلاح لعهدها يحاول ان يوسع مملكته وان يحول عياله الملك — كان الملك اعلى سادات فرنسا كهياً وارقام منزلة وله لقب سام ويخضع له

الجميع ولكنه لم يكن اقدرهم بل كان لدوق نورمنديا وكونت تولوز املاك اوسع من املاكه ولم يكن بين الاخلاص الذي يرتبط به اوائك السادة العظام مع الملك الا عبارة عن حافلة اديبة لا يمنهم من ان يعلتوا الحرب عليه حتى انهم كانوا اذا لم يريدوا نقض العهد علكا قلما يتضايقون منه . وقد وضع روبرت كونت فلاندر سنة ١١٠١ وفي عهدة عقدتها مع ملك انكلترا الشرط الآتي: اذا هاجم لويس ملك فرنسا الملك هنري في نورمنديا يذهب روبرت في عشرة من الفرسان فقط الى جيش لويس وبيق الخمسمائة فارس الآخرون في خدمة الملك هنري واذا زحف الملك لويس على انكلترا وأخذ معه الكونت يقيم على الكونت ان يأخذ معه ايضاً اقل ما يمكن من الرجال . ولقد بلغ التعجب مبلغه في بلاط لويس السابع عند ما جاء أسقف ماند الى باريز يعترف بسلطة ملك فرنسا وقيل ان هذا البلد لم يخضع قط الا لاسقفه ولم يكن الملك كسائر السادة مطاعاً الا في محلته واقتضى له اذا اراد ان يطاع في مملكة فرنسا ان يوسم املاكه على صر القرون ويدخل ولاياتها في ملكه الواحدة بعد الاخرى .

العادة - لم يكن لاهل القرون الوسطى قوانين محررة بل كانوا يعملون في كل مسألة بماسلف لاجدادهم منها ويسمون ذلك اتباع العادة ولم تكن العادة مكتوبة بل كانت تحفظ تقليداً حتى في القرن الثالث عشر ايضاً اذا حدث حادث مشتببه به يجمع اقدم السكان ويسألون عما راوه يعمل في مثل هذا الشأن وهكذا كان لكل قرية عادتها حدثت مع الزمن ولم تكن تنبيه عادة القرية المحاورة قال بوماناورا لا يوجد سيف في هذه المملكة سيدان حاكمان يعملان بعادة واحدة ومع هذا فان الصقع الواحد الذي تشابه عاداته بعض الشيء يتألف منها عادة واحدة . والفرق الكبير كان بين بلاد الشمال حيث العادة كانت منبعثة من العادات الجرمانية وبين بلاد الجنوب التي احتفظت بعادات الحقوق الرومانية . وبعد فند كان اهل القرون الوسطى يحبون العادة ويحرمونها لانها كانت القاعدة الوحيدة التي يهرعون اليها والسد الوحيد في وجه الظلم وعندما ان العادة يجب بقاؤها ومن لا يحفظها يوشك ان يفتح سبيل الخصاص الكثير بين الناس .

السلم والمعدل - كان ارباب الاملاك في القرون الوسطى يولدون دعائم السلام بين عبيد محلتهم ويحكمون بينهم (احكاماً تختلف جوراً وعدلاً) وأكث لم يولد احد دعائم السلام بين ارباب الاملاك وكل منهم يحكم نفسه بنفسه وذلك باظهار

الحرب على جاره و يقتضي لتقرير السلام ان يعدل الفرسان عن عادتهم في التفاضل الى السلاح وان يقبلوا بعض قضاياهم في محكمة وان يستعاض عن الحروب بقضايا ولذا كان لفظ سلم وعدل من الالفاظ المترادفة في القرون الوسطى واقد كان للملك في بعض البلاد (مثل نورمنديا وانكلترا و نابل واسبانيا) من الاقتدار ما يستطيع معه ان يكره الفرسان ان يحفظوا السلم للملك او للدوق وحاول الاساقفة في البلاد الاخرى ان يقنعوا الفرسان بتوطيد سلام الله ولكنهم لم يفلحوا ان يؤسسوا محكمة منتظمة .

فاذا اختصم اثنان من ارباب الاملاك قد يقرر جيرانها بان يقضوا الخلاف بينهما بواسطة محكمين او ان يكون سيدهما من السلطة بحيث يكرهها على المشول امامه وفي تلك الحال ينظر في الخلاف ضباط قصره وبعض الفرسان المجاورين وهذا ما يسمى محكمة السيد ولكن هذا الفصل متقطع وغير نافذ احيانا لان من يخسر في الحكم لا يسمعه الا ان يعود الى القتال . فقد كان هوغ في القرن الحادي عشر احد النابعين لاسقفية كامبري يستوقف تجار المدن و يقطع لحام و يطلب الفداء منهم و يخرب قرى الاسقف . فطلبه سيده هذا ثلاث مرات متتابعة ثم مثل بين يديه ولكنه ابى ان يعطي اقل تعويض فحكم فرسان محكمة الاسقف عليه بانه يؤخذ منه اقطاعه فلم يهتم هوغ بالامر وعاد الى منزله و بعد مدة اوقف الاسقف بالذات .

المبارزة — كانت قضية من القضايا التي ينظر فيها الفرسان في محاكمهم اشبه بحرب فتى اجتمع الخصمان يتضارب احدهما وصاحبه ومن فاز ربح القضية وكان يذهب القوم اذ ذاك الى ان الله كتب له الغلبة لانه محق في امره وهذا ما يسمونه بالقتال او المبارزة . فالقضاة الذين ثألف منهم المملكة يعددون الى ان يحلفوا الخصمين بانهما يزعمان بان مع كل منهما الحق وان يحتطوا الارض التي تقع فيها المبارزة وان يراقبوهما . فالمحكمة تأمر بالمبارزة لا عند حدوث جريمة او اهانة بل لابت في امر محتمل ان تكون وفي اي قاعدة في العدل يجب اتباعها . وقد تبارز خصمان في القرن الثالث عشر بامر الفونس ملك قشتالة للحكم فيما اذا كان يدخل القانون الروماني الى مملكته . وكان الفرسان يعتبرون المبارزة اسهل ذريعة واثمرفها للبت في قضية فلم يكن اذ ذاك مناقشة تجريبية ولا حجة بدلي بها فلا جواب يجاب به الخصم الا القتال .

ولم تؤلف المبارزة فقط في محاكم الفرسان بل في محاكم المدن بين اهل الطبقة الوسطى و احيانا بين الفلاحين في البرية فيتسلح المتقاتلون باتروس والعصا واذا كان احد الخصمين ليس

من القوة بحيث يستطيع البراز يعد إلى آخر يتوب عنه فكان القتال يجري في باريز حتى في محكمة الأسقف ولقد وقع شك في هذه العادة فسئل البابا اوجين الثالث رأيه فاجاب عليكم باستعمال عادتكم .

ولقد تأصلت عادة البراز تأصلاً تعذر معه استئصالها ولما ألغى البراز في المحاكم ظل ينظر إليه بأنه الوسيلة الوحيدة في قضايا استرداد الشرف المثلوم فهو كالروثة بقية ما ابتته القرون الوسطى من عاداتها ولم يبق الا بفضل الاباء والمروءة

حكم الله — لا يستطيع النساء ان يتبارزن وكثيراً ما يمنع منه الفلاحون وفي تلك الحال يعمد القوم الى استخدام ضرب آخر من ضروب احكام الله . فبعد قداس او صلوات تقام غانية للتوسل الى الله ان يظهر الحق كان يقضى على الرجل او المرأة بان يحمل حديدة محمأة بضع خطوات او ان يغمس يده في اجانة ماء مغلي فاذا نجحت يده بعد بضعة ايام من الجرح فتحكم الله يكون له . واحياناً كانوا يلتقون به في مستنقع الماء فاذا غرق فقد ربح واذا عام فقد خسر وينتقم على ان يلقوه في الماء يستعطف الكاهن الماء بهذا الكلام : يا الله أناشدك الله القادر الذي خلقك وامرك بان تقوم بمخارج الانسان بان لا تقبل هذا الرجل اذا كان مجرمًا بل اجعليه يطوف على وجهك . واحياناً يكتفون بان يبلع المشتكى عليه قطعة من الخبز والجبن بعد ان يكونوا استخلفوهما بان يبقيا في حانئ المشتكى عليه اذا كان كاذباً . وهذه المحن يسمونها الحكم . وقد كتبت الكنيسة كتاباً في الطقوس لكل واحد منها ولما اجتمع المجمع العام في لاتران سنة ١٢١٥ امر بالغاء هذه الكتب

الكنيسة في القرون الوسطى

تنظيم الكنيسة

الأسقفيات — احتفظت عامة المدن في المملكة الرومانية القديمة بأسقفياتها وابرشياتها . وكما كانت البلاد في المانيا تدين بالنصرانية كان الملوك ينشئون كرامى اساقفة . فكان ان الكنيسة كانت تحظر ان تقيم أسقفاً في غير المدينة كان القوم يؤسسون في آن واحد مدينة وأبرشية . وكانت الابريشيات باجمعها قديماً وحديثها غنية جداً فلها املاك واسعة وقد تملك احياناً ولاية برأسها وقد منح الملوك للأساقفة براءات يحكمون بموجبها بلادهم بأنفسهم . وجاء في صك الاعفاء انه ليس لموظف عام ان يدخل الى ارض هذه الكنيسة لاجابة خراج ولا للحكم ولا للقبض على العبيد والاحرار الذين يسكنون

فيها . وبذلك أصبح الاسقف ملكاً حقيقياً فكان اساقفة كولونيا ومايانس وترير ثلاثتهم اكبر الامراء في المانيا .

مجامع الرهبان — خضع قيسو الكاتدرائية (يسمون الكاتدرائية كل كنيسة في حاضرة أبرشية) أولاً للاسقف وأخذوا منذ القرن التاسع يعيشون عيشة مشتركة بحسب القاعدة التي جرى عليها الرهبان ومن هنا اشتق الاسم الذي اطلق عليهم وهو كاهن قانون *Chanoine* اي الخاضع للقاعدة ومجامعهم هي مجامع الكهنة او الرهبان . وكان الكهنة القانونيون يعيشون باديء بدءاً مخصص لهم من الطعام واللباس ولما ذهب القوم للمجامع عطايا أصبحت تلك المخصصات ملكاً وكثيراً ما يكون مقبلاً . فكان كل راهب قانوني يتمتع بدخل مخصص يتسّر له به ان يعيش عيشة سيد . ومعنى عاش فلان عيشة الكاهن القانوني انه عاش في سعة وباهية واذا استقلت المجامع من الاساقفة أصبح القائنون عليها ايضاً اقبالاً وملوكاً .

الادبار — مامن ابرشية في القرون الوسطى الا وكان فيها عدة اديار للرهبان وكلهم محافظون على السنة التي سنّها القديس بنوا ولكن كانت كل اخوية تؤلف ديراً مستقلاً يرأسه رئيسه . والدير عبارة عن مساكن للرهبان ويست للرئيس وكنيسة ودار الضيافة (ينزلون فيها الغرباء) ومعامل ومخازن وبيوت الخدم والمزارعين فكان الدير على الاقل كناية عن قرية كبرى واحياناً مدينة صغرى (مثل لاربول وسان مكنان وفيز بلاي) وللدير املاك واسعة منتشرة احياناً في عدة ولايات فيبعث رئيسه الى الاملاك القاصية بقعة رهبان للسكنى تحت ادارة رئيس عليهم وهذه الادبار الصغيرة التابعة للكبرى تسمى الطاعة . وتجرى احكام رئيس الدير بعمونة الرهبان المجتمعين في مجملهم ويكون تحت يده في الادبار الكبيرة رهبان لكل منهم وظيفه مثل مدير الدير ونائبه وقيم الثياب وقيم الطعام وقيم الخزانة وقيم الكتب ورئيس المتشدين ومدير المدرسة فيعيش الرهبان بعضهم مع الآخر وعليهم ان يلتزموا السكوت الاسلم بعض الساعات ويجتمعون قبل طلوع الفجر ليتفرقوا بصلاة السحر عند الاشرار ثم يقومون بالغرض الاول ثم يجهي وقت القداس والصلوات كاحداجزاء الغرض الكهنوتي و صلاة النوم . واذا كانت سنة القديس بنوا تقضي بان يعمل كل راهب كانوا يعنون بجرث الارض او ملاحظة خدمتهم او صنع امتعة لزينة الكنيسة او نسخ مخطوطات . وقد وصف كثير من الرهبان عيشتهم في اديارهم ولكن الصورة تختلف باختلاف غنى

الدير وقره وجدته وقدمه وحسن ادارته وسوئها

الخواريات — لم تكن كنائس ولا قسيسون في غير المدن ايام الرومان ولما غدت البلاد مسيحية كلها أخذ كبار ارباب الاملاك والسادة وروساء الاديارا والاساقفة ينشئون بيعة ومعابد في محلاتهم فيعطي المومس لكنيسة قطعة ارض كافية تقوم بنفقات الكنيسة واطعام راهب ويصدق الاسقف على هذا التأسيس وعندئذ يخدم كاهن تلك الكنيسة (يكون لمومسها واعقابها الحق في تعيينه) ارواح اهل القرية ويجب على السكان ان يأتوا الى كنيسة و بطبيعة و الارض التي يدبرشونها وراها ثنائف منها خورنية او ادارة ولما تم هذا العمل (وكان ذلك نحو القرن العاشر في فرنسا) انقسمت جميع البلاد المسيحية الى خواريات كما هي الى اليوم واصبح لكل قرية كنيسة او تبعت كنيسة القرية المجاورة لها . ودخل الدين الى المزارع الناحية واستطاع الفلاحون ان يتعبدوا بدون ان يأتوا المدن وغدوا يقيمون صلواتهم في كنائس قراهم حيث يجمعون وصارت ابراج اجراسهم وقيابها ترى من بعيد وتدعو الاجراس المؤمنين الى الصلاة ولم اجران معمودة لتعميد اولادهم وقبور ليدفنوا فيها موتاهم وبعين اظهروهم كاهنهم يعلمهم الدين ولم قدسهم اوحاي كنيسةهم وعيده عيد للقرية وكثيرا ما كانت تسمى القرية باسمه .

الحرم — كان رجال الدين في القرون الوسطى اغني من العامة واكثر تهذيبا وتعلما منهم ولم مع هذه قوة لاتغالب وهو انهم كانوا يناولون القربان الذي لا يستغني احد عن تناوله ولم يكن على ذلك العهد ملاحدة واذا حدث احبانا لاحد العامة ان نشتر على الكنيسة او انه اساء الى راهب في حالة غضب فانهم كلهم يعتقدون اعتقادا راسخا في اليوم الآخر وبنويون وبنويون لينالوا الغفران وكان رجال الدين يستعملون الاسلحة الروحية كما كانوا يدعونها في تأديب الجناة والعصاة فكان المحرم محروما أي مطرودا من تناول القربان مع جمهور المؤمنين فكان الاسقف يقول اننا بموجب السلطة الالهية التي منحها القديس بطرس الى الاساقفة ننبذ فلانا من جحراة الكنيسة المقدسة فليعلن في المدينة وفي الحقول وفي بيته وعلى كل مسيحي ان لا يكلمه ولا يواكاه وعلى اي راهب ان لا يقيم له القداس ولا يناول القربان وان يدفن كما يدفن الحمار كما ان هذه المشاغل التي القينا بها من أيدينا سننطق وان ضوء حياته سيخمد ان لم يتب ويقدم ترضية .

وقد بدى في القرن الحادي عشر باستعمال المتع الكثنائي ضد السادة الذين كانوا يزدرون بالحرم فكان رجل الدين يحرم من تناول القربان السيد ومحته فلا يقد عقد زواج في كل أرض ولا يدفن ميت ولا يقرع جرس و ينال السكان ما ينال سيدهم ولذلك يقضى عليهم ان يصوموا ويرسلوا شعورهم علامة الحداد . وعلى هذه الصورة كان رجال الدين يكرهون السادة ان يحترموا القوانين الدينية ويحفظون عليهم الاستيلاء على أرزاق الكنيسة .

اصلاح الكنيسة

اختلاط السلطات — كانت الميزة ضعيفة جداً في القرن الحادي عشر بين السلطة الروحية على الأرواح والسلطة الزمنية على الأجساد فلم يكن الاساقفة ورؤساء الاديار رؤساء دينيين فقط بل كانت لهم حصة كبرى من السلطة السياسية فكانوا لما يملكون من الاملاك يعدون في السادة العظماء اي حكاماً على فلاحهم واتباعهم من الفرسان ثم ان الملوك والامراء وكلهم من رجال السيف كانوا في حاجة الى رجال الكنيسة في شؤون الحكومة المرتبطة بالاساقفة فالسادة هم الذين كانوا يتولون عنهم ذلك فيجلسون في قصورهم يكتبون أواميرهم ويعلن احكامهم ويحكمون . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل قدم مع الاساقفة منذ عهد شارلمان نصيباً في إدارة الولايات وكان لكثير من الاساقفة في المانيا سلطة كساسة الكونت . وهم مع حصولهم على سلطة سيد من العامة يخضعون لما يقضى به السيد . هم تابعون لذلك كالكونتية فيخضعون عليهم ان يقدموا للملك كالكونتية منافع ويقدموا في الجيش وكان جيش الملك في المانيا مؤلفاً من فرسان أتي بهم اساقفة ورؤساء اديار ولكن الملك كان يضطرم احياناً ان يجيبوا الدعوة الى حمل السلاح بانفسهم . فقد كتب فيليب الاول الى رئيس دير سان ميدار اي سواسون ان القاعدة القديمة تقضي على فرسان الدير ان يحضروا بقيادة رئيس الدير للاشتراك بالحملات الملوكية وان على رئيس الدير ان يخضع هذه العادة او يستقيل . فاستقال رئيس الدير وجاء خلقه الى الجيش .

الفكر السائد اذ ذاك — كان الاساقفة ورؤساء الاديار في القرن العاشر من ابناء السادات في العادة والكنيسة والقسيسون من أبناء الفلاحين دخلوا في الرهبنة بدون ميل منهم بل لجرد طاعة اهلهم او الاستمتاع بنعم الكنيسة . فكانوا يأتون الى كنائسهم باخلاق العامة فيعوضون اوقاتهم في الصيد والشرب والاب والتفائل

ورؤساء الأديار يبددون أموال الدير ليعولوا عصابة من المشردين وكثير منهم يتزوجون ويقفون كنيسة على أولادهم . وقد شوهد في نورمانديا كهنة يتنازلون عن دورهم بائنة لبيئاتهم وكثير منهم كانوا أميين يحرفون كلام القديس بجهلهم وابتساع معظلمهم مناصبهم من أناس من العامة وكانوا يبيعونها إلى غيرهم من رجال الكنيسة . وتسمى هذه التجارة بيع المقدسات الروحية (سيمونية) وأصبح الأكلير يكونون الخاصة جفاة غلاظاً جهلاء طماعين كالعامه وكان يقال ان الكنيسة قد سرى إليها الفكر السائد في ذلك القرن .

رهبنة جديدة — أوجس رجال الكنيسة المخلصون لا دأبها خيفة من هذه الفضائح فحملوا أرباب الغيرة منهم على تأسيس رهبانيات جديدة فجاء بعضهم من هذا العالم الفاسد وهربوا إلى البادية مثل القديس برونو الذي جاء من شمالي فرنسا وتوغل في جبال دوفينه المتوحشة في بضعة من رفاقه وأسس رهبنة القلايين (شارتره او الكروتوسيين) وأسس أحد عظماء الطليان القديس رومولاد في جبال طوسكانيا رهبنة الكامالدولييين . وإراد آخرون استئصال هذه الفضائح مباشرة بادخال رجال الدين تحت قاعدة فبدأوا يشددون في نظام أحد الأديار ليكون نموذجاً في اصلاح غيره . واهم مراكز الاصلاح كان دير كلوني أقدم الأديار وقد جرى اصلاحه في القرن الحادي عشر ودير سينتو الذي أسس سنة ١٠٩٤ وكلاهما في اقليم بورغونيا ودير كليرفوالمؤسس سنة ١١١٥ وبرمونتير المؤسس سنة ١١٢٠

ولم يقصدوا بذلك ان يستعبدوا عن القاعدة القديمة التي وضعها القديس بنوا بل على العكس ان يضعوها موضع العمل بانفاذ نظام العمل على الرهبان والطاعة والفاقة مما بطل في الأديار بما تسرب إليها من افكار ذلك القرن . ففتح مؤسس دير كليرفو القديس برنارد رهبانه من لبس الفراء والدفتر والقبعات وقضى بحظر جميع انواع الزينة حتى في الكنائس ولم يسمح بغير صليب من الخشب المنقوش وشعبدان كبير مشعب من الحديد ومباخر من النحاس . وبقي الرهبان كله بعد الاصلاح من البنديكثيين ونقرر لتوقيف الخلل الذي دخل على ايسر وجه الى دير مستقل ان ترجع للدير المصلح ادارة الأديار المؤسسة او المصلحة على يده . وهكذا أصبحت اديار كلوني وسينتو وبرمونتير وزعيم رهبنة ولم تعد اديار رهبنتها ادياراً كبيرى بل يبعاً ومعابد تخضع لرئيس واحد وتبعث بمفوضين من قبلها يمثلونها في المجتمعات العامة في الرهبنة . فنجحت الرهبنة

في اسرع ما يمكن فكان لكلوفي في القرن الثاني عشر زهاء اربعمائة راهب وينظر في شؤن التي دير وكان لسيثوت تحت طاعتها نحو ١٨٠٠ دير منتشرة في جميع اوربا وعند ذلك بدأت المنافسة بين رهبان كلوفي السود ورهبان سيثو البيض . وكان هؤلاء الرهبان المصلحون هم الذين اضطروا بقية رجال الدين ان يصلحوا اخلاقهم وهم الذين عضدوا البابا احسن عضد وحملوا المسيحيين كافة عامتهم وخاصتهم ان يحسنوا رؤوسهم لسلطته . فقد كان غريغوريوس السابع البابا العظيم المصلح الحاكم من رهبان كلوفي والقدس برنارد اللاهوتي العظيم في القرن الثاني عشر من رهبان سيثو . كان من العادة القديمة في الكنيسة اذا اقر احد المؤمنين بخطيئة ارتكبتها ان يقضي عليه القسيس بالتوبة قبل ان يغفر له وبدعه يدخل الكنيسة بين الناس وتجري هذه التوبة علانية اذا كانت الخطيئة ارتكبت كذلك . وكنت في القرن الثامن كتب توبة فيها العقوبة المقدرة لكل خطيئة . مضت قرون وهذه التوبات مثال القسوة واذلال النفس ففي بعض التوبات التي تطول سبع سنين كان يتحنن على التائب في السنة الاولى ان يقف حافيا امام باب المدينة يركع امام الداخلين ويوصل اليهم ان يصلوا له . والتوبات عبارة عن الصيام وتزديد صلوات وضرب البدن بالعصي ثم انتظمت هذه الطريقة فرأى رجال الكنيسة ان ثلاثة آلاف غسرة بالعصا تعادل سنة في التوبة . وقد اشتهر احد نساك الطليان في القرن الحادي عشر واسمه دومينيك واقب بالدارع بانه يتكفن في خمسة عشر يوما ان يقوم بمئة سنة من التوبة واقرؤا ايضا على ابتياع التوبة بالاعمال الصالحة مثل الحج ومنح العطايا الى الكنائس وكانوا يقولون ان للقدسيين من الفضائل اكثر مما يجب خلاصهم وهذه الفضائل الزائدة قد تألف منها كنز الغفرانات التي بها تشتري خطيئات الخطيئين . ولدى الكنيسة هذا الكنز في الغفران تنفق منه على المؤمنين وسيفي وشعها ان تفصل منه على ارواح الموتى التي يراد تطهيرها وتطلب لقاء ذلك بعض المال . فالخطيئة لا يشتري الغفران (كما قيل ذلك خطأ) بل يبتاع التوبة فقط وبعبارة اخرى ان الكنيسة تعطيهما له . هذه هي نظرية الغفرانات . فقد قال داميانوس اننا بما نأخذ من اراضي التائبين ننحهم كمية من التوبة بحسب ما يعطوننا . وعلى هذا كانت التوبة قد عين احدها وهي السهولة (ما يثقل بالغفران من العنايا والحج) وهذا يكفي الارواح النائرة واوقات السكون والآخر وهو بري (ضرب العصي) تطمئن اليه الارواح المنقمة

وقد كان الغيورون من المسيحيين مثل القديس لويس والقديسة اليزابثة يلبسون قيعاً من الشعر ويضربون بعضاً بد من يعترفون له . وفي اوقات الفزع الديني خلال الاوثنة والحروب لتأف عصابات من المضروبين بالعصي يجتاحون البلاد واكتافهم عريانة وهم يضربون انفسهم حتى تسيل دماؤهم

انفصال الكنيسة الرومية — مضى دهر طويل لم يؤلف المسيحيون الروم في بلاد الشرق سوى كنيسة واحدة مع مسيحي الرومان في الغرب فكانت لهم عدة بطارقة في الاسثانة والاسكندرية والقدس وانطاكية ويعترفون ايضاً بتقدم أسقف رومية ولكن بعد ان فتح العرب مصر وسورية لم يبق في الامبراطورية سوى بطريك واحد وهو بطريك القسطنطينية الذي أخذ يناقش البابا . ولما قطع البابا العلائق مع الامبراطور في القرن الثامن بشأن عبادة الصور بدأ المسيحيون الروم ان لا ينظروا الى مسيحي الغرب اخوانهم وكان بين الفريقين من اهل العالم المسيحي بعض فروق خفيفة في امور التعبد والمعتقد فالروم يعتقدون ان روح القدس لم ينبثق الا من الآب والغريبيون يعتقدون انه ينبثق من الآب والابن معاً وان الابن من مادة الآب نفسها . والروم يستعملون الخبز في المناولة والغريبيون خبزاً بدون خمير والروم يسمحون بزواج القسوس والغريبيون يحظرونه .

وظهرت تلك العداوة الخفية بين الكنيستين جهاراً في القرن التاسع فمزله الامبراطور اغناس بطريك القسطنطينية واقام عوضاً عنه فوتيوس احد قدماء الساسة والقياد وهو اكثر الناس تعلماً في زمانه ولم يكن راهباً بل اجتاز درجات الكهنوت كلها في بضعة ايام فغضب البابا نقولا للبطريك المقاتل وحرّم فوتيوس واشياعه فجمع فوتيوس في الاسثانة مجمعاً حكماً على معتقدات اللاتين الخاصة بانها الحاد وحرّم نقولا (٨٦٧) فاغتنم البابا فرصة تبديل الامبراطور ليجمع في القسطنطينية مجمعاً مسكونياً (٨٦٩) قضى بعزل فوتيوس وفسخ اعماله . وفي سنة ٨٧٩ فسخ مجمع جديد اوامر مجمع سنة ٨٦٩ واعلن بان البابا ليس سلطاناً على الكنيسة الا في الغرب فاجاب على ذلك بحرم فوتيوس الذي انقطع الى احد الاديار وبدا بذلك ان التقاطع بين الكنيسة اصبح مبرماً ولكن الباباوات في أواخر القرن التاسع اصبحوا في ايدي بارونات رومية فأمسوا من الضعف بحيث لا يستطيعون المقاومة في هذا الباب ولما شعر البابا أواسط القرن الحادي عشر بتوطيد مركزه في رومية والغرب بعث بنائين من قبله يضعان

باحتراف في كنيسة القسطنطينية براءة الحرم الذي صدر من البابا على البطريرك واشياعه (١٠٥٤) فابت كنيسة الشرق ان تخضع وظل المسيحيون منذ ذاك العهد منقسمين الى كنيسة الكنيستين اللاتينية او الكاثوليكية التي خضعت للبابا والكنيسة الرومية او الارثوذكسية التي اعترفت ببطريرك القسطنطينية وليس الروم فقط هم اتباع هذه الكنيسة بل الروس والبلغار والصرب والرومانيون

الاحاد - كان الملاحدة (المراطقة) نادرين منفردين في القرون الاولى والوسطى فبدأوا في القرن الثاني عشر يتكاثرون ولا سيما في جنوبي فرنسا وشمالي ايطاليا وانقسموا الى شيع مختلفة كثيراً يصعب علينا تمييزها ولا نعرفها الا بما نقله عنها اعداؤها فمنهم من اقتبسوا من ملاحدة بلغاريا مذهب الماتوي الفارسي القديم في نزاع الخير والشر وآخرون وهم الكاتاريون (الاطهار) فقرأه ليون القود ويون كانوا ملاحدة بنضاً بمقاسد رجال الكهنوت في عصرهم وزعيم شيعة القوديين فالدوس تاجر غني من اغنياه ليون كان ترجم له الكتاب المقدس باللغة المانية فاحب عملاً بحكمة الانجيل ان يوزع جميع ما يملك على الفقراء وأخذ يدعو الى الدين على رغم منع الأسقف عليه ذلك وكان انصاره يرفضون كل ما لا يرونه مسطوراً عندهم في التوراة مثل الصور والماء المقدس والقديسين والدخائر والمطهر والصوم والغفرانات وكانوا يقولون ان الكنيسة الرومانية ليست كنيسة المسيح بل كنيسة الشيطان وما الاحبار الا فرسيون يجب ان لا يملكوا شيئاً من حطام الدنيا بل ان يعملوا كما عمل الحواريون وان لا يتقودوا اذ ليس في الكنيسة الحقيقية الا اهل التساوي فالعامة لبسوا دون الخاصة ولم الحق ان ينشروا كما كان يبشر الرسل والعامي النبي هو اشد عرافة في الرعيته ويحسن ان يتناول القربان من رجال الكهنوت اهل الخطيئات الحاكمين المتحكمين بالكنيسة ففسر القربان المقدس والغفرانات لافائدة فيه لان الايمان والتوبة يكفيان في السلامة . وكانت قوة هؤلاء الملاحدة باختلاطهم مع الشعب مباشرة بكملة بلسانه ويعيش واعظم عيش الفقر والشدّة المخالفة لاخلاق احوار رجال الدين الاغنيا الفاسدين احياناً ولكن معظم المسيحيين كانوا يفرعون من امم الحاد وطقوا عن رضى يخدمون رجال الكهنوت ليقضوا على الملاحدة ودعا البابا فرسان فرنسا فاعلوا عليهم حرباً صليبية كما اعلنوها على المسلمين فذبحوا جميع سكان بزيبر على نحو ما فعل الصليبيون في الشرق من ذبح الرجال والنساء في اورشليم . وقد حرم البابا الامبراطور فريدريك الثاني في المانيا وهو نصف عربي

بشدته فأحرق كل من أشتبه فيهم انهم ملحدون .

ديوان التفتيش الديني — بعث البابا الى مدن اقليم لانكدوك بموظفين عهد اليهم البحث عن من يشبه بهم بالاخذ وذلك لاستأصل الملاحدة عن بكرة ابيههم ومنهم كل سلطة في القاء القبض على كل شخص ومحاكمته والحكم عليه واطلق لهم الحرية ان يعملوا بما يرونه مناسباً مباحاً لهم ان يغفر بعضهم لبعض اذا بدرت منهم بادرة وهو لاء المفتشون (وفي العادة ان يكونوا قسوساً) يستقدمون الرجال الذين يرمون بالزندقة و يسألونهم بدون ان يقولوا لهم اسماء من اظهر امرهم فاذا اتي المشتبه به الكلام يسجنونه و يضيقون الخناق عليه ولقد قال احدهم لاء المفتشين ولطالما رأيت انساناً حياً على تلك الصورة سنين كثيرة فانتحي بهم الحال ان اقروا ايضا باجرام لم قديمة وعادوا ايضا ليعلموهم على الاقرار يستعملون معهم طريقة التعذيب التي تركت منذ عهد الرومان واخذت بالاستعمال عند ظهورهم وكانت محكمة التفتيش تحكم بطريقة عرقية بدون استئناف تحكم على بعضهم بغرامات فاحشة او بجمع بعيد وعلى غيرهم ان يحملوا على ثيابهم صلباناً صفراء تخط عليها فتشعر بانهم مشبه بامرهم امام القوم و يقضى على الآخرين ان يطوفوا ثابئين يحملون العصي ليجلدوا . وغيرهم يسجنون موبداً في مطبق صغير مظلم على خبز الكرب وماء العذاب وبعضهم يحرقون سيفاً وقود الحطب وديوان التفتيش لا ينفذ الحكم عليهم بنفسه بل يكتبني بان يدفعهم الى القاضي المدني العامي وهو يعيدهم الى الجلاذ .

الرهبان الشعاذون — اصبحت الرهبات الدينية التي حملت في القرن الحادي عشر على الفساد المستفوذ غنية غنى فاحشاً فكان رئيس دير كلوفي يسبح في موكب مؤلف من ثمانين فارساً والرهبان البهض الذين أرسلوا لتحصير الملاحدة قد حملوهم على العصيان بما رأوه من بذخهم ولذا دعت الحال الى وضع نظام جديد وذلك بما قام به القديس فرنسوا الايطالي والقديس دومينيك الاسبانيولي .

فكان القديس فرنسوا (ولد سنة ١١٨٢) ابن تاجر غني في آيزنخيل عن المال وراح الى المدن يشوكف الاكف ويدعو الناس . فظنه القوم مختل الشعور ولعنه ابوه ولكن ابن جانبه ولطفه وحماسته لم تلبث ان عقدت القلوب على حبه فانجبت به وجاءه من تلقوا دعوته زرافات فعزم ان يضم شتاتهم وانشأ رهبنة الاخران القاصرين (الفرنسيسكان) وكان القديس فرنسوا يعيش يعيش التنسك يسهر وبصلي وبصوم

وبلبس مسحاً ويمزج رماً في طعامه لئلا يلذ طعمه ويجلد نفسه كل ليلة بسلاسل من الحديد (ثلاث مرات واحدة عن نفسه واخرى عن ارباب الخطايا الاحياء وثالثة عن ارواح المطهر) ومات مضجعا على الارض بلا وطاء وكان خلافاً للعجساء مخفض الجناح راغباً في خلاص غيره يريد ان يكون من جماعته الفرنسيسكان نساك ابداً فقراء ولكن نساك يعيشون بين اظهر الناس ليعرضوه على التقوى قال لتلاميذه : اذهبوا اثنين اثنين مبشرين الناس بالسلام والتوبة للعفو عن خطيئاتهم . لا تخافوا شيئاً لاننا ابعدو للناس كالاطفال او المعنوهين ولكن بشروا فقط بالانابة والتجدد وكونوا على ثقة بان روح الله الذي يدبر العالم ينطق بلسانكم . وكانت قاعدته بسيطة للغاية وهو ان لا يملك الاخوان شيئاً بل ان يمضوا في هذا العالم كالخجاج والغرباء يخدمون الله بالفقر والضرعة اليه والصدقات قصارى ما يتلقون به ولا ينجحون من حالم لان السيد المسيح سن لنا سنة الفقر . ولبس الفرنسيسكان لباس الحاجين وهو عبارة عن ثوب من الصوف الغليظ له قبعة ومن هنا اشتق اسمهم (الكبوشيون) ويلبسون في ارجلهم نعالاً ويمتنطقون بحبل (ومن هنا سموا ايضاً الحبالين) ولا يعيشون الا من الصدقات

وكان القديس دومينيك (ولد سنة ١١٧٠) من النساك ايضاً لا يشرب الخمر ولبس مسحاً مع سائلة حديد ومات مضطجعا على الرمال وكان واعظاً وعظ عشر سنين في البلاد الالهية لهداية الملاحدة وهناك رأى كيف يطمح الشعب لسماع كلام الله وهو يتألم لما يرى من بدخ رجال الكهنوت . ومن سنة السير على القدم بالبسة ساذجة للغاية وأراد ان يكون على هاكلة في الامة رسل مبشرون فأنشأ جمعية الاخوان الواعظين جعل شأنهم ان يتكلموا في كل مكان بما فيه سلامة الارواح ووضع الفقر قاعدة لهم .

وهكذا كان الفرنسيسكان شحاذين فاصبحوا واعظين والدينيكيون واعظين فاصبحوا شحاذين وكانت الرهبنتان تتسابهان من وجوه كثيرة ^(١) وكانتا كلثاماً منظميتين ولهما

(١) اقترح القديس دومينيك ان يمزج الرهبتين فابى القديس فرنسوا يريد ذلك ان تكون كل رهبنة مثلاً للآخرى ومهازاً يسوقها الى العمل فكانت الرهبنتان اولاً خصيتين ومختلفتين ولم يجي^٢ القرن الخامس عشر الا واخذت كل منهما نكره الاخرى وانتهت الحال بتقاتلهما وتدابيرهما

قائد يودهما بطبيع البابا مباشرة ولكن الدومينيكيين كانت علاقتهم بالسادة والملوك أكثر والفرنسيسكان بجمهور الشعب وامتدت كلمة هاتين الجمعيتين امتداداً لا يكاد يصدق فلم تدخل سنة ١٢٧٧ الا وكان للدومينيكيين ٤١٧ ديراً وكان للفرنسيسكان سنة ١٢٦٠ — ١٨٠٨ اديار وفي كل ديار اثنا عشر راهباً على الأقل واذ كان اعتمادهم على الله الذي كان مربيهم وخوانتهم كانوا يقبلون في مجملتهم من الاخوان كل من جاءهم فمن يقصدونهم يسطونهم ثوباً وجلباً وما عدا ذلك فيكون أمره للعناية الالهية. ولقد عاش قديما الرهبان خارجين عن العالم اما الرهبان الشحاؤون فأختلطوا بالمجتمع وأذن لم البابا ان يشرؤاو يعرؤواو يدفنوا فأخذ المؤمنون يهرعون اليهم تاركين قسوسهم المعتادين وكان بذلك ثورة عظيمة وطدت سلطة البابا كل التوطيد

عدل الكنيسة -- كان في كل ابرشية منذ القرن الثالث عشر محكمة للكنيسة يجلس فيها مندوب الاسقف للحكم فينظر فيها في عامة القضايا التي لها مساس باحد الاكليريكيين اذ لم يكن يقبل ان عامياً يرفع يده على رجل من رجال الله فالاكليريكي اذا ارتكب جرماً لا يحكم عليه الا مثله وهذا من جملة امتيازات رجال الدين امتيازات يرغب فيها لان قضاء الكنيسة لا يحكمون بالاعدام بثاناً وكثيراً ما كان احد الاشقياء فراراً بنفسه من المشقة يدخل في درجة من درجات الاكليرس ويتعلم صلاة باللاتينية ويظهر بمظهر ديني وقد امتدت سلطة المحاكم الكنائسية على العامة. فالكنيسة التي تدير اسرار القربان المقدس يجب ان تبت في كل المسائل التي لها علاقة بهذا الشأن ومثل هذه المسائل ليست بقليلة. فقد اصبح الزواج منذ ظهور الدين المسيحي سراً من اسرار القربان فيأقي الزواجان في شهودهما يقفان تحت دهليز الكنيسة فيسألها الكاهن فيما اذا كانا يقبلان بالزواج فيقول الزوج انا ياهذه ارضاك زوجة ونقول العروس انا ياهذا ارضيتك بعلأ وبأني اهل المرأة يضعون يدهما في يد زوجها ويبارك القسيس خاتم الزواج اشارة العقد ثم يدخلون كلهم الكنيسة^(١) فيتلو القسيس القداس على الزوجين الراكعين المستورين بشعار خاص وهذه الحفلة جعلت الزواج في يد الكنيسة وكانت تكفي في عهد الرومان ارادة الزوجين لعقد القران كما تكفي ارايتها لفسخه اما المسيحيون فعلى العكس لا يستطيعون الزواج الا اذا سمحت

(١) من عادة الافرنج ان يطيلوا في وصف كل ماله علاقة بهم ولكن سنيوبوس اطل في الشؤون الدينية الخاصة بقومه حتى خرج عن موضوع الحضارة جملة (المعرب)

الكنيسة (وكثيراً ما تخطره حتى بين الأهل البعيدين) فإذا تزوجوا كان زواجهم طول العمر لأن سر الزواج لا يفشل . وهكذا بطل الطلاق وإذا تعذر الثمام الزوجين لا تسمح الكنيسة إلا بالتفريق بينهما ولا تحل رابطة الزواج مطلقاً .

والكنيسة تحسب أيضاً في الوصايا لأن الرجل لا يتأق له أن يوصي إلا بعد الاعتراف والاعتراف سر من الأسرار وتأق الكنيسة أن تدفن من لم يعترف ولم يوص والعادة تقضي أن يكون سيف كل وصية وقف يحبس للكنيسة وترجع جميع القضايا في الوصايا إلى محكمة الكنيسة . والكنيسة تحسب أيضاً على العامة المتممين بجرمة تخالف الدين أمثال الزناقة والحرمين والمرابين (وذلك لأن كنيسة تحظر الربا) وزعم اينوسان الثالث أن من واجب الكنيسة أن تحسب في جميع الخطايا وكانت محاكم الكنيسة إلى القرن السادس عشر أكثر عملاً من المحاكم العادية

البابوية

البابوية — الباباوات في القرن العاشر كسائر أساقفة إيطاليا سقطت تحت سلطة العامة من السادات الذين هم نصف لصوص في رومية فكانوا يخلون بعضهم ببعض في خرائب المعاهد القديمة ويشرفون على اختيار البابا الذي يشاؤون . فكان الكرسي المقدس ملكاً لأمة من البارونات زمنًا طويلاً . ونساء تلك الأسرة تيودورا وماروزيا تختبان الخبر الأعظم فشوهن بابا في الثانية عشرة من عمره وآخر باع البابوية من خلفه وقد جعل الامبراطور هنري الثالث حداً لهذه الفوضى وذلك بأن اخذ على نفسه تعيين البابا وما كان انصار الإصلاح يرضون أن تكون أرقى مناصب الكنيسة خاضعة لسلالة رجل من العامة ولقد وقف ليون التاسع الذي نصبه ابن عمه الامبراطور بابا على أبواب رومية بصفة حاج واراد أن يجري انتخابه بحسب القانون من قبل رجال الاكثيوس وشعب رومية ثم قرر مجمع لاتران سنة ١٠٦١ أن يجري انتخاب الباباوات سيف المستقبل بمعرفة أساقفة المدن الصغيرة في بلاد الاناليم الرومية وان يصدق الامبراطور على انتخابه ولكن لم يلبث هذا القرار أن صرف النظر عنه . وهذه القاعدة في الانتخاب التي جرى العمل عليها بعد قد جعلت للباباوية استقلالاً عن شعب رومية والملوك الأجانب . ولما أصبح البابا مستقلاً أخذ يظهر الكنيسة من روح العصر بمنع زواج الرهبان وبيع الأشياء الروحية وتولية العامة للبابا

خصام على التولية — تقضي القوانين القديمة في الكنيسة أن ينتخب الأسقف

بمعرفة الكهنة القانونيين ورئيس الدير بمعرفة رهبانه واذا كان لكل ابرشية ولكل دير املاك واسعة اعطاها له الملك على سبيل الاقطاع وكان الملك ولا سيما في المانيا بطالب بحق تعيين من يستعمل بهذه الاقطاعات فاذا مات أسقف او رئيس دير يحمل الكهنة القانونيون او القساوسة اليه الملك علامات المنصب الأسقفى او الرئيس وهي العكاز رمز السلطة والخاتم رمز اتحاد الجبر مع الكنيسة فيختار الملك من يرده وفي العادة انه يختار احد رجال الكنيسة في قصره ويخلفه يمين التبعية له ويوليّه اسمه يملكه زمام منصبه بان يدفع اليه العكاز والخاتم . وهذه العادة قد ثارت لها المصلحون في الكنيسة . قال البابا اوربانوس الثاني أمن الممكن ان تكون الادي التي تشرفت بالشرف العالمي في ايجاد الخالق (كذا) بحيث يؤول امرها الى العار بالخضوع الى ايد ملوثة بالسلب والدم . وما معني قبول منصب كنائسي من عاي الا الاتجار بالاشياء المقدسة وبذلك ارتكاب الخطيئة المميتة في بيع هذه المقدسات فطالب البابا من ثم ان يقتل الامبراطور عن انتخاب الاساقفة وروساء الاديار ليكون انقيادهم بحسب القواعد القانونية . وكان الامبراطور يجيب على هذا المقترح بان الابرشيات والاديار جزء من الاملاك الامبراطورية والامبراطور وحده الحق في ان يوليها من اراد . وعلى هذا الوجه ثار بين الامبراطور والبابا خصام على التولية . وانصار البابا في مطالبه القسيسون وانصار الاصلاح وانصار الامبراطور الاساقفة وروساء الاديار في المانيا ولومبارديا اتباعه والقساوسة المتزوجون وعنده احضر أسقف كوار سنة ١٠٧٥ ليبلغ رئيس اساقفة ماينانس الامر البابوي في حظر الزواج على القسيسين قام جميع الاكليروس الذين كانوا حاضرين المجلس مغاضبين شامتين رئيس الاساقفة وماتعه من قبول هذا الامر . ودام الاخذ والرد في ذلك نصف قرن (١٠٧٥-١١٢٢) وتعذر التوفيق فيه بسبب حقوق مداخيل الكنيسة او سلطة الاساقفة السياسية وقد حل البابا باسكال الاشكال بان قرر تنازل الاساقفة عن المدن والكونتيات والنقود والمكوس والقصور والاملاك والحقوق التي يعطيها الامبراطور لهم . فلم يرض رجال الاكليروس عن هذا النظام ولما عقد الصلح سنة ١١٢٢ احتفظ الاساقفة بحقوق مداخيلهم وسلطتهم السياسية فسمح الامبراطور بانتخاب الاساقفة وروساء الاديار من قبل الكهنة القانونيين او القسوس وان يعطوهم العكاز والخاتم ولكنه ابى حق توليتهم بالعلم كالامراء من العامة .

مناوشات البابا مع الامبراطور — كان البابا والامبراطور متفقين على ان يحكموا

متركين كما وقع على عهد شارلمان فلم يكن من حاجة لتمييز سلطة أحدهما عن الآخر وتحديد حقوق كل منهما وكان يقال إن الله أعطى مسيحين سيف السلطة الزمنية للامبراطور وسيف السلطة الروحية للبابا ليحكموا العالم معاً ولكن عندما اشتدت جذوة الخلاف بين البابا والامبراطور اتفقا أن يتسائل الناس ما هي حقوق السلطة الروحية والسلطة الزمنية وعندئذ حدث نقف . وهي مسألة صعبة لم يتيسر للعصور المقبلة أن تحل عوبها ولا تزال تتناقش فيها بعد تحت اسم صلات الكنيسة بالحكومة

ولقد كان الناس في القرون الوسطى يسيثون فهم سلطتين متساويتين مستقلتين وهل البابا أو الامبراطور هو الذي يحكم على الآخر وكل منهما يزعم أن سلطته رفيعة سامية فكان الامبراطور وارث القياصرة والملقب بالغايهم بطالب بحق الزعامة على العالم اجمع والبابا يقول إن الله باعطاءه الى القديس بطرس الحق المطلق أن يحل ويربط سيف السماء وعلى الارض لم يستثن أحداً بل اخضع اليه الامراء وجميع دول العالم وولاه اميراً على ممالك الدنيا . والبابا اسمى مقاماً من جميع الامراء وهو قاضهم في وسع . اذا رآهم غير لائقين للحكم أن يحرمهم وأن يعزلهم وأن يجعل رعاياهم في حل من اخلاص البيعة لهم . وقد نفذ غريغوريوس السابع هذه الحكة بعزل هنري الرابع . فطال الخصام بين السلطتين فبدأ في "قرن الثاني عشر على التوالي ودام بشأن حقوق الامبراطور على مدن لومبارديا الى سنة ١٢٥٠ فغلب الامبراطور لأن سلطته على العالم وهمية ولم تكن له سلطة الا في المانيا واطاليا ثم انه عاجز عن ان يبذل له الطاعة امراء الالمان ومدن الطليان

نفوذ البابا — اصبح البابا في القرن الثالث عشر وبنده رجال الكهنوت الذي قوي بالاصلاح والتهذيب زعيم العالم المسيحي بلا منازع فهو يصفته نائب المسيح يحكم على رجال الاكليريوس كافة وهو لا يحكمون على جمهور المؤمنين وحفظ لنفسه الحق ان يجمع الجميع وبعزل الاساقفة ويغفر لكرار المجرمين ويعطي ما يلزم من التفتحات فيتناول القربان على عرش عال ويقبل جماعته رجلية ورسائله قوة الشريعة في الكنيسة كلها واليك كيف تحدد سلطته قال ابونو . ان الثالث : لقد وضع الخالق في سماء الكنيسة منصبين اعظمها البابوية فهي تحكم على الارواح كما تحكم الشمس على النهار واقلهما الملك فهو على الاجسام كالقمر في الليل فالبابوية مفضلة على الملك كما تفضل الشمس القمر . وقد عهد سبحانه وتعالى الى القديس بطرس ان يحكم لا الكنيسة العامة فقط بل العالم فكأن جميع

مخلوقات السماء والأرض والجميع ثلثي ركبتهما امام الله هكذا كلهم يجب ان يخضعوا لثانيه حتى لا يكون في الارض سوى قطيع واحد وراع واحد .

وقد كتب إيرينفاس الثامن سنة ١٢٩٦ الى ملك فرنسا يقول : اسمع يا ولدي كلام اب شفق واياك ان تعتقد بان ليس فوقك يد وانك غير خاضع لزعم رجال الدين . وكتب سنة ١٣٠٠ في المنشور المشهور ان الكنيسة واحدة هي جسم واحد ليس له الا رأس واحد لا رأسان كالمنسخ وهذا الرأس هو خليفة القديس بطرس علنا الانجيل ان في الكنيسة سيفين زمني وروحي تستعمل الكنيسة ويد البابا احدهما والثاني الكنيسة ويد الملوك بالمر البابا

مضت القرون الاولى وليس في الكنيسة سوى قوانين اي قواعد وضعتها الجماع وعندما عرف البابا سلطته الى جميع رجال الاكليروس أصبحت اوامره قوانين للكنيسة على نحو ما كانت قديماً اوامر الامبراطور الروماني شرايع للمملكة وقد جمع كراينين الراهب الابطالي في القرن الثاني عشر الارامر التي نسبت لقدماء الباباوات والاف منها كتاباً سماه الديكري اي الامر . فزاد عليه الباباوات في القرن الثالث عشر هذه مجاميع جديدة مؤلفة من رسائل الباباوات التي ظهرت بعد جمع الرسائل الاولى وهكذا فكان ان يوسنيانوس ألف مادة الشريعة المدنية ألف الباباوات مادة الشريعة القانونية التي ظلت قانوناً للكنيسة

المدنية الشرقية في الغرب

نقدم شعوب الشرق في القرون الوسطى — ليمثل الفارسي لعينيه المدينيتين اللتين كانتا في القرن الحادي عشر نفسان العالم القديم ففي الغرب مدن حقيرة صغرى واكواخ فلاحين وقلاع لاهندسة لها وبلاد مضطربة على الدوام بالحرب لا يتأق ان يسير فيها السائر عشرة فراسخ بدون ان يسلب وينهب وفي الشرق مدن القسطنطينية والقاهرة ودمشق وبغداد وجميع مدن الب ليلة وليلة يجافيهن من قصور المرمر والمعالم والمدارس والاسواق والحدائق الممتدة على بضعة فراسخ وربة تروي احسن ارواء غاصة بالقرى والضياع وحركة التجار التي لا تنقطع فترام يذهبون بسلام من اسبانيا الى فارس ولا شك ان العالم الاسلامي والعالم البيزنطي كانا اغنى واحسن نظاماً ونوراً من العالم الغربي فكان المسيحيون يشعرون بنقصهم في التهذيب ويهيجون ببلاهة بما يبدو لهم من غرائب الشرق ومن يجب التعلم يقصد الى مدارس الغرب . وبدأ العالمان الغربي والشرقي في القرن

الحادي عشر بتعارفان ودخل المسيحيون البرابرة الى حصى المسلمين المحدثين من طريقين الحرب والتجارة

الحروب الصليبية — انتهى المسلمون من جهادهم المقدس فشرع النصارى بجهادهم وكان ذلك الحرب الصليبية . وقد دبر شؤن الحرب الصليبية البابا اوربانوس الثاني في كلرمون وكان فرنسويًا . وكان يقصد من هذه الحرب انقاذ البيت المقدس (اي قبر المسيح) من ايدي غير المسيحيين فمن يسافرون يجهلون على اكتافهم صليبا او صليب البابا . ومن هنا اشتق اسم الصليبيين . فكان الصليبي حاجا مسلحا ووعد البابا كل من يشترك بهذه الحملة ان يعفو عنه من كل الذنوب التي تحملها لقاء خطايه . وانضم الى هؤلاء الثائمين اناس من تجار الطليان وفرسان رغبتم انفسهم بالفتيحة وانتفعوا من غلبات الصليبيين على المسلمين ليقبوا سيف سورية حيث انشأوا اربع امارات (كانت تسمى الافرنج)^(١) وفي سنة ١٢٠٤ سبر البنادقة حملة على القسطنطينية وفتحوا امبراطورية الروم ولقد بدأت هذه الحرب اواخر القرن الحادي عشر ودامت الى القرن الثالث عشر وكثيرا ما كانوا يتحدثون حتى القرن الخامس عشر بمعادنتها . وكانت آخر حملة من حملات الصليبيين في اسبانيا سنة ١٤٩٢ انتهت بأخذ غرناطة .

صفة الحروب الصليبية — كانت الحروب الصليبية حملات مؤلفة من المسيحيين منظمة بمعرفة البابا زعيم النصارى العام فكان كل صليبي حاجا مسلحا تغفو الكنيسة عن جميع الذنوب التي وقع فيها فكانت الحاجون يجتمعون جيوشا ضخمة حول السادات القادرين او حول نائب البابا ولكن لانظام في صفوفهم فهم احرار ان يتنقلوا من جيش الى آخر او ان يتركوا الحملة عندما يرون ان نذرهم قد تم . فالجيش الصليبي لم يكن سوى اجتماع عصابات تسير الى مقصد واحد من طريق واحد فكانوا يسيرون مشوشا نظامهم على مهل راكبين خيولا ضخمة لابسين دروعا ثقيلة يجهلون انقاذهم فينوثون بها كما ينوثون بخدمتهم وبالترابين معهم فكانوا يضيعون اشهرآ سنة اجتياز الامبراطورية البيزنطية وقتال فرسان الاتراك في آسيا الصغرى والرجال والخيول تموت في القفار التي لا ماء فيها ولا سبيل الى اخذ الميرة جوعا وظمأ وتعبا وكانت الاوبئة التي تحدث بين المعسكرات التي يزلونها من قلة العناية والمادة والصوم المتعاقب بعد

(١) دعا العرب جميع مسيحيي الغرب بالافرنج لانهم كانوا في القرن التاسع يضمهم

لواء مملكة الفرنك

الافراط في الطعام والشراب تحصد ارواحهم بالآلاف . وكان من يملكون سوربة قليلاً عددهم فقني الرجال واي فناء في القرن الثاني عشر على هذه الصورة على طريق الارض المقدسة فضاقت صدر الصليبيين من هذه الرحلات القتالة في البر واخذوا يعدلون عنها وفي القرن الثالث عشر قصدوا كلهم البلاد المقدسة من طريق البحر فكانت السفن الابطالية نقلهم وخبوهم الى الارض المقدسة في بضعة اشهر حيث يجاهدون الجهاد الحقيقي

كان الفرسان في قتالهم المسلمين اذا تساوى عدد المقاتلين قد يكتب النصر لهم وذلك لانهم كانوا يجيئونهم الضخمة وسلاحهم الذي لا يتأثر بخرقه بوقلوع كتاب مزاولة لا يشطب فرسان العرب الراكون على خيول صغيرة ان يخرقوها بسهامهم وسيفوفهم . نعم ان حروبهم لم تسفر عن نتيجة فعاد الصليبيون الظافرون الى اوربا ورجع المسلمون . وهذه الجيوش المنقطعة كانت تستطيع فتح الارض المقدسة ولكنها لم تكف لحفظها بيد انه كان ينضم الى أهل الصليب الذين اتوا للنجاة بانفسهم من الخطايا رجال من الفرسان والتجار الذين قصدوا البلاد ليغتنوا فكانوا يمتنون بحفظ البلاد وبهؤلاء كتب التوفيق الثام في الحروب الصليبية باستخدامهم القوة الموقفة التي كان يوليها سواد الصليبيين . فكانوا يديرون الاعمال الحربية وينشئون ادوات الحصار وبأخذون المدن بتحصنوا فيها بحيث يتوقعون عودة العدو . ولو ترك اولئك الصليبيون وانفسهم لما استطاعوا ان يقاتلوا في تلك البلاد القاصية فان الحملات ذات الأبهة التي كان الملوك قوادها (مثل لويس الثاني عشر وكونراد وفرديريك بربروس وفيليب اغسطس وملك المجر وسان لوي) قد اخفقت كلها اخفاقاً ذليلاً . والحروب الصليبية الوحيدة التي نجحت حقيقة (الاولى التي فتحت سورية والرابعة التي فتحت امبراطورية الروم) وكان قواد الاولى الثورمانديون من ايطاليا والاخرى البنادقة . وكانت حماسة الصليبيين وشجاعتهم قوة عظماء لا ينفع بها الا اذا كان المدبرون لها اناساً من اهل التجربة . وما كان الصليبيون سوى معاونين والمؤسسون الحقيقيون للممالك المسيحية هم المنشردون والتجار ممن كانوا يشبهون المهاجرين المحدثين الذين كانوا يسافرون لاسطنبول الشرق . وما كان هؤلاء المهاجرون قط من الكثرة بحيث تأهل بهم البلاد بل نزلوها متخذين لهم مسكرات بين اهلها الوطنيين ولم تكن الامارات الافرنجية سوى عبارة عن حكم اشرف يقوم به بضعة الوف من الفرسان الفرنسيين والتجار الابطاليين فليس لها من تماسك الاجزاء ما كان

للمالك الغرب التي تستند على الامم والشعوب فاشبهت هذه الامارات الممالك التي أسسها زعماء
 المحاربين العرب او الاتراك حيث تمتزج الحكومة بالجيش وتهلك واياه . وطال عمر
 هذه الامارات قرنين وهي حياة تعد طويلة في الممالك الشرقية ولو تيسرت هجرة قويتها
 لتوطدت أمسها ازاء آسيا الاسلامية والبيزنطية ولكن اوروبا في القرون الوسطى لم
 تستطع ان تقوم بهذه المهاجرات

مضى نصف قرن ولم يشغلوا بغير حرب صغار الامراء في سورية وكان مسلمو مصر
 يعيشون معهم بسلام وهذا زمن نجاحهم ولما أتى صلاح الدين على الخلافة بمصر
 فقرضها وتألقت بدلاً منها حكومة عسكرية في القاهرة هوجم المسيحيون من جهة مصر
 فلم يستطيعوا ان يقاوموا زمناً طويلاً (كما دلت على ذلك انتصارات صلاح الدين) فاذا
 كانوا احتفظوا بممالكهم قرناً آخر فذلك لان السلاطين لم يحرصوا ان يهدوهم . لاجرم
 ان هذه الحروب كانت في نظر المسلمين كما هي في نظر المسيحيين جهاداً مقدساً ولكنها
 انقطعت بمهادنات بضع سنين ولا ينبغي لنا ان نتصور جميع امراء المسيحيين متحدين
 على امراء المسلمين بل كانت المصالح السياسية أشد قوة من البغضاء الدينية وما برح امراء
 النصارى يتقاتلون بعضهم مع بعض كأمراء المسلمين يقتل بعضهم بعضاً وقد حدث ان
 اميراً مسيحياً تحالف مع امير مسلم على امير مسيحي . وما خفي كان الانفاق تاماً في جيش
 النصارى فالحماسة التي كانت تجمعهم لم تأت على مناسبتهم في التجارة ولا على تباعضهم
 الجنسي وكان النزاع دائماً بين الامراء من مختلفي الممالك بين الفرنسيين والالمان والانكليز
 بين تجار جنوة وتجار البندقية بين النابلية والاسبانية (فرسان الهيكلية والمقرين)
 وكثيراً ما تغاثروا . ومثل ذلك من الخلاف بين الصليبيين القادمين من اوروبا والافرنج
 المقيمين في سورية . ولقد اتخذ الافرنج عادات الشرقيين لما عاشوا بين اهلهم فاستعملوا
 الحلمات والالبسة المسترسلة ونظموا خيالة مسلمين على الطريقة الاسلامية وانشأوا
 يعاملون المسلمين معاملة المحسورين ولا يحاربونهم بدون داع . واراد فرسان الغرب
 القادمين وقد ملئت صدورهم غيظاً على المسلمين ان يهدوا كل شيء وقد حنفوا من هذا
 التسامح فكانوا اذا خرجوا من البحر ينقضون على الارض الاسلامية ويهرعون للقتال
 والنهب وكثيراً ما كانوا لا يستمعون لما ينصح لهم به مسيحيو البلاد الواسع اختبارهم في
 الحرب في الشرق أكثر منهم . ولقد وصف مؤرخو الغرب نصارى الارض المقدسة
 بالذلة والخدبة والفساد ونسبوا اليهم خراب ممالك سورية . وليت شعري ماذا يكون

من الصدق في هذه التهم ؟ لاجرم ان هؤلاء المنشردين من الافرنج قد اغتوا على
اسرع وجه واخذوا يعيشون في بدخ باحتكاكهم بشعوب فاسدين قد سرت اليهم فاسد
كثيرة ولا سيما من ولد منهم في سورية وكانوا يدعونهم المهارى ولكن الصليبيين
لم تكن لهم من المكانة ما يخلوهم اصدار مثل هذه الاحكام فانهم انفسهم بنعلهم قد احدثوا من
المصائب اكثر مما احدث نصارى سورية بقرتهم

يا شرق

لا الصبر ينقعه ولا الجزع
يأيل هذا ساءم قلبي
هل فيك ذوشجن يشار كفي
مررت الموم فتمت ادفعها
حلت بصدري لاتفارقه
من بات تدمع عينه اسفا
اشقت من دهرى على املي
وبلي عليه وهو يخدعني
قلب يكاد شجاء يطلم
يرعى النجوم وقومه جمعوا
اشكو له ما بي فيسمع
واذا هموم ليس تندفع
ان ضاق عنها فهي تنسع
فانا فواديه بات يدمع
واليوم انظر كيف ينقطع
ادريه حقيقته وانخضع

...

يا شرق لاجل بك العداة هوى
وبنوك قد طبعوا على خلق
عاشوا بولف بينهم وطن
ينفرون على مذاهبهم
بجملوا فاضعهم تعصبهم
انذرتهم يوما صواده
واريتهم زمنا ألم بهم
هنأتهم بالامس اذ نهضوا
اهدبهم ودي فما قبلوا
يا شرق اغرام بلك الطمع
وبلى سواء الناس قد طبعوا
فتخالفوا فيه وهم شيع
وعلى الاخاء الناس تجتمع
والله لو علموا لما خضعوا
لومست الافلاك لتصدع
ببريه السهام لم وينزع
واليوم ارثيهم وقد وقعوا
اخلفتهم نصحي فما اتبعوا